(21)

صاعقة في واشنطن

عند عودتي إلى فرنسة، استنجدت ببعض الأصدقاء لمساعدتي في العثور على المحامي صديق خان، وهو المحامي الذي طلب مني زكريا الاتصال به، كل هذا تطلب شيئاً من الوقت لكني عثرت عليه، وحدد لي موعداً لمقابلته في لندن بتاريخ 23 يوليو.

قررت أن أسافر إلى لندن قبل الموعد لقضاء بعض الوقت عند الأصدقاء، وأثناء السفر في القطار كنت أتمتع بجمال الطبيعة عبر النافذة، لكن عقلي كان في استضافة زكريا، لم أستطع التركيز على أي شيء، يا ترى ماذا سيفعل؟ وفي ماذا يفكر؟ رن الهاتف وأخرجني من أحلامي.

صديق لي صحافي، من القلائل الذين منحتهم ثقتي وصداقتي. معه يمكن التحدث بكل صدق وصراحة دون أي إحراج.

قال لي:

- ماذا يجري بشأن زكريا؟ أتعرفين أنه أدلى بتصريحات خطرة؟ تصريحات لا تبشر بالخير. وتوحي بقرب نهايته.

قلت له: لا أعرف شيئاً.

- لقد اعترف أنه مذنب، وأنه ينتمي للقاعدة.

ياله من خبر أسود، هذه هي النهاية. استرسل الصديق في الحديث لكني لا أسمعه.

- ما الذي فعل؟ هذا غير معقول؟ لماذا كان دوماً يقول لي إنه لم يفعل شيئاً، ولم يشارك في أحداث سبتمبر؟ لا أصدق ما يحصل، ولا أريد أن أصدق.

لم يتوقف الهاتف عن استقبال الصحافيين، لكني لم أكن قادرة ولا مستعدة للرد عليهم. بقيت ساعتان للوصول. تبدو كأنها اللا نهاية، وصلت إلى باريس في حالة سيئة للغاية، اتصل بي المحامي روكس للتأكد من مواصلة الدفاع عن زكريا، مع أن زكريا رفضه مثل غيره، وطلب مني العودة إلى واشنطن في أقرب فرصة لإقناع زكريا بالعدول على تصريحاته الخطرة، يجب إقناعه بالتراجع عن أقواله، أكد لي أني الوحيدة القادرة على التأثير عليه. هناك جلسة الأسبوع القادم. إذا استمر في الإصرار على أقواله هذه، سوف يذهب إلى المشنقة مباشرة.

- متى سينتهي هذا الكابوس؟ هل سينتهي يوماً ما؟ قلت هذا، وأوقفت المكالمة.

الهاتف يرن باستمرار، وكل رجال الصحافة يبحثون عني، نصحني بعض الأصدقاء أن أعقد مؤتمراً صحفياً لإسكات الجميع، ألغيت موعد لندن، وفي صباح الغد أجريت تصريحاً في الإذاعة الفرنسية «راديو فرانس».

واجهت أكثر من خمسين صحفياً، وكلهم من الصحافة المحترفة، من فرنسيين وأجانب. كنت خائفة لأني لم أتذوق طعم النوم طوال الليل، كنت مثل فريسة الصيد المطاردة من كل الجهات.

كانت أسئلة الصحافيين تنهال علي من كل جهة، لماذا غير زكريا موقفه؟ لماذا يقول إن ابن لادن هو والده؟ ماذا يجب أن أرد على مثل هذه الأسئلة؟ الحقيقة لا أصدق. هو ليس في حالته الطبيعية، من جهة أتساءل لعل ولدي أجري له غسيل مخ من قبل رفاق السوء، ومن جهة أخرى لعله انهار من شدة المعاملة التي يعاني منها في السجن، التي أفقدته صوابه.

ولدي الذي أشرفت على تربيته، وأحسنت تربيته وحميته وهو صغير، لم أعرفه بهذا الشكل. هذا إحساس لا يطاق، ولا يمكن أن أصدق مثل هذا التصرف أبداً.

في الصباح الباكر من يوم الغد سوف أسافر إلى واشنطن، هذه ثالث مرة أثناء سنة، سوف أعاني أسبوعاً بالكامل. عند نزولي من الطائرة شعرت كأن قلبي ينسلخ من صدري ليهرب بنفسه بعيداً عن الجحيم، إنه ينتفض بكل ما بقي له من قوة، أنا خائفة على ولدي، إنه ولدي ويبقى ولدي دماً ولحماً. أعرف أنه اعترف بأشياء فظيعة؛ أشياء لا تصدق. اعترف أنه كان يتردد على الإسلاميين القتلة، وأراد أن يشبههم، لكن ليس هذا هو زكريا الذي أعرفه. ابني زكريا لا ينتمي إلى هؤلاء، ولا يفعل ما يفعلون. ليس هذا هو زكريا الذي ربيته وداعبته وسهرت الليالي لتأمين حمايته، لقد سكن بداخله شخص آخر يجب علي أنْ أخلصه منه، لهذا يجب أن أكون بجانبه، لأفهمه إذا أراد أن يرجع إلى زكريا الذي أعرفه، ويبتعد عن صراط الضالين الحاقدين، فسوف يجدني بجانبه لمساندته في معركته.

ليلة الجلسة ذهبت بصحبة المحامين إلى السجن لمحاولة مقابلته، وجدت الحارسة نفسها تلك الأم اللطيفة الطيبة والإنسانة المتفهمة التي

استقبلتني منذ ثلاثة أشهر. رفض زكريا مقابلتنا فهو يفضل التركيز استعداداً لمواجهة القضاء.

قلت لها: بلغيه تحياتي، وليعلم أني أحبه، ربما حبي هذا يلين قلبه. غادرت السجن بقلب دامٍ كنت أحاول إخفاء ألمي وحزني اللذين لا تستطيع التعبير عنهما، إلا أم مجروحة في العمق.

الأيام التي تلت كانت مفعمة بالألم، كنت أدعو لعل الله يهدي ولدي، ويرجع إلى صوابه، ولا يرمي بنفسه في أحضان الموت.

في 25 يوليو 2002 موعد الجلسة المنتظرة، ذهبت إلى مجلس القضاء بصحبة المحامين من بينهم صديق خان المحامي الذي طلبه ولدي، أخذت أراقب ولدي منتظرة منه أي حركة أو إشارة، لقد رآني. هناك شيء غير طبيعي، لكنه وضع يده على قلبه، وقال السلام عليكم باشرته برد السلام عليه.

بدأت الجلسة، وجاء دور زكريا ليتكلم، كلماته الأولى كتمت أنفاسي. قال بالإنجليزية: إنه ينتمي إلى تنظيم القاعدة، وهو من رجال ابن لادن، وكان على اتصال بكل أفراد عملية 11 سبتمبر.

بعد هذا التصريح الجارح نهض من كرسيه، ونظر إلى صديق خان، وقال له: إنه سوف يقر أمام الله أنه غير مذنب، لينقذ حياته بوصفه مسلماً. تصريحاته متناقضة وغير منطقية، فقدت البوصلة، ونظرت إليه لأتأكد أنه لم يفقد عقله.

بعد الجلسة ذهبت إلى السجن، وطلبت من الإدارة مقابلة ولدي، ،رفض مقابلتي من جديد. أنا التي قطعت المحيط لأكون بجانبه وقريبة منه، انهارت أعصابي وارتفع ضغطي وسالت دموعي.

رجع الحارس، وأخبرني أن زكريا وافق على مقابلتي صباح الغد عند الساعة الثامنة. في الصباح قابلته كالعادة من خلف الزجاج العازل، كانت نظراته هي نظرات الأمس نفسها. عند تقابل نظري ونظره كان من الصعب عليه وعليَّ التلفظ بأي شيء، رفضت الكلمات أن تخرج. كنت أرتجف والكلمات تغادر شفتي.

قلت له بلطف: كيف حالك.

- قال لي بعد أن وجه بصره إلى الأرض.

- طيب، طيب أنا بخير.

هذه طريقة إجابته كأنه يقول لماذا تسألينني عن حالي، أنا أعرفه جيداً، وأعرف أسلوبه في الكلام قلت له:

- ما بك؟ هل هناك شيء ما يضايقك؟

- قلت ذلك لفك العقدة.

رد علي:

- أنا بخير، وسعيد برؤيتك.

قال ذلك بصدر مشروح.

- لا يبدو عليك أنك بخير، إني ألاحظ أنك تفكر قبل مصارحتي بأي شيء، ماذا حصل لك؟ لماذا أدليت بهذا التصريح أمام القضاة؟ إنك تغامر بمصيرك وحياتك؟

- أنا طيب والحمد لله، لم يحصل أي شيء.

قال ذلك باستهزاء وتذمر.

- إنك أمي وأكن لك كل الاحترام، ولكني أصبحت رجلاً، ولي الحق في الدفاع عن نفسي، وهذا يخصني أنا وحدي.

في هذه اللحظة شعرت أن السماء سقطت على رأسي.

- يكفي، لنتكلم عن شيء آخر، إني سوف أقوم بإعداد ملف خاص بالدفاع عن نفسي. ومضطر لكتابته باليد؛ لأن الحاسوب الذي لدي تارة يعمل، وأخرى لا. عندما تأتي لزيارتي أفضل أن نتكلم في شيء آخر، غير قضيتي قال ذلك بصرامة.

بقية المقابلة كانت أخذ ورد، طلب مني بيع بيتي والتبرع به للمساجد؛ لأنه بني بمال اقترضته من البنك، وهذا حرام بالإضافة إلى هذا، فهذا البيت لم يجلب لنا إلا الحسد، حسد العائلة بالطبع. قال لي أيضاً: يجب أن تعودي إلى المغرب، وتنهي حياتك هناك.

كيف أعود إلى المغرب وأنا لم أترك أي شيء يذكر؟ كيف أرجع إلى هناك بعد كل الإهانة والعذاب الذي تعرضت إليه؟ سوف لا أعود هناك أبداً. قال لي بعنف: امرأة مسلمة لا تعيش مثل ما تعيشين.

لا أفهم، لماذا يلومني؟ وعلى أي شيء يلومني؟ ماذا يجري بداخل مخه؟ هل نسي العنف والفقر اللذين تخبطنا فيهما دون مساعدة من أحد أفراد العائلة لنا؟ هل نسي الجحيم الذي عشنا فيه مع أبيه؟

المحادثة تسير من سيئ إلى أسوأ، كان يتكلم وكأنه كان يتهيأ لهذه المناقشة منذ زمن طويل للتهجم عليَّ بهذه القسوة.

تابع كلامه وقال: كان من المفروض أن تعودي إلى المغرب بعد طلاقك من أبي لكي نتمكن من العيش بطريقة سليمة. ليس لنا مكان بفرنسة.

- كيف يتجرأ بمصارحتي بكل هذا.

لقد تجاوز الحدود، كيف يتجرأ على تلقيني دروساً في الحياة. قلت له:

- أذكّركَ أن العكس هو ما حصل، عندما واجهتنا المشكلات لم يقف أحد من أفراد العائلة بجانبنا، كان الكل يلجأ إلينا للهروب من مشكلاتهم وبؤسهم فقط، يلجؤون إلينا لامتصاص أموالنا فقط.

كنت على وشك سؤاله وماذا فعل هو معي؟ وماذا يفعل الآن من أجلي؟ وهو في الرابعة والثلاثين من العمر؟ يقيم في السجن لسوء السلوك، لكني امتنعت عن ذلك لكي لا أهينه أمام الحراس الثلاثة الذين يتابعون نقاشنا عن قرب. قلت له أخيراً:

- أنا لم أقطعْ آلاف الكيلومترات لأصغي إليك، وأنت تكلمني بهذه القسوة، وتتشاجر معي. قال:

- أترين كيف تضايقت من كلامي، قال ذلك بكل هدوء.

- نعم إنك توجه لي اللوم، مع أني لا أستحق ذلك.

تأسف وطلب مني العفو عن كل ما صدر منه. في هذه اللحظة ظننت أن زكريا الذي أعرفه عاد إلى صوابه، زكريا الصادق الأمين يبدو وكأنه ضائع، قال لي: إنّه يحبني، وإنّ الشيطان هو الذي يحرضه على إيذائي بهذه القسوة.

عندما صارحته أن هناك محامين يعملون في الخفاء لإنقاذه، بالإضافة إلى مؤسسات خيرية وأصدقاء، فقد صوابه من جديد، وقال لي بكبرياء كفى. كفى.

خرجت من السجن منهارة محطمة، أنا أعرف أنه يسيء لي انتقاماً من الحالة التي هو فيها، وأن كبرياءه لا يسمح له بمصارحتي، ليقول لي إنه يتألم، لذا فهو يقول أي شيء لإيذائي، إنه بارع في إيذاء الآخرين وجرحهم بالكلام. إنه يتميز في هذا الميدان.

لم يبق لي سوى يوم واحد أقضيه في واشنطن، حاولت أن أنسى زكريا ولو دقيقة واحدة، لكني عجزت. إنه بداخل رأسي لأني أفكر فيه باستمرار، عندما أقوم بغسل الصحون أو تناول الشاي أو النظر إلى خارج البيت من الشرفة لأتأمل المارة أو السيارات المسرعة، لا أرى إلا زكريا، ولا أفكر إلا في زكريا. ماذا جرى لك يا ولدي؟ دعني أساعدك من فضلك.

أنا أقاسمه بعض الأحاسيس المتطرفة، مثل رفض الآخرين الحزن والسخط، كما أميل من جهة أخرى إلى اللطف الشديد والحب لأنه ولدي، وأنا أتخبط بين الواقع والعقل، وأحمّل ابني مسؤولية كلامه غير المعقول، وأريد في الوقت نفسه مساعدته، وإيجاد الأعذار له. أريد لعنه والغفران

له، كما أريد التخلي عن كل شيء والهروب بجلدي إلى أقصى العالم. لا أفكر لا فيه ولا في نفسي، وأريد أيضاً البقاء معه والتفكير فيه باستمرار وغير ذلك من أنواع التخبط في الأفكار.

كل واحد من هذه الأحاسيس لا يولد داخلي إلا الألم، الألم نفسه. ولا يخلف إلا جروحاً عميقة، وينال مني ويضعفني اليوم، ويضاعف قوتي عشرات المرات في اليوم اللاحق. وهكذا تستمر حياتي ومعاناتي، وأعرف من أعماقي أن قلبي مهما ضعف، سيواصل القتال إلى النصر، لذا يجب أن أواصل؛ لأن زكريا أصبح القاضي والجلاد في الوقت نفسه. جلاد نفسه بالطبع. في المستقبل يجب أن أجمع كل قواي لأنقذه من حبل المشنقة غصباً عنه.

(22)

ألو أمي زكريا معك

في 26 ديسمبر 2002 كنت بباريس لأجيب عن أسئلة إحدى الصحفيين، فجأة وعند الساعة الخامسة والنصف عصراً، وفي قلب المناقشة سمعت جوالي يرن. حاولت الإجابة لكني لم أعرف من هو المتكلم، أردت إيقاف الجوال ظناً مني أن هناك خطأ، ولكني فجأة عرفت أن المكالمة من أحد رجال الأف - بي - أي، وجه لي بعض الأسئلة الخاصة ليتأكد من شخصي. ثم قال لي إنّ ولدك زكريا يريد التكلم معك، وسوف نطلبك بعد نصف ساعة. ارتبكت كثيراً لأني لم أصدق ما سمعت، بدأت أرتعشُ، لكني سعيدة أن زكريا يطلبني. هذا غير معقول، كيف فعل؟

انتابني خوف شديد، وتساءلت عن سبب هذه المكالمة المفاجئة. هل حصل شيء خطر؟ عديدٌ من الأسئلة تسللت إلى مخي، انتظرت إلى الساعة الثامنة مساء، فجأة رن الهاتف من جديد. قلبي على وشك الانفجار، إنها حالة طوارئ فقط، وإنه أحد رجال الأف - بي - أي. بالطبع يخبرني أن زكريا سوف يكلمني غداً مساء، كان لوقع هذه المكالمة أثر كبير علي فقد سالت دموع الفرح والأمل من عيني، وشرح لي محدثي أنه إذا تمت هذه التجربة على ما يرام سوف تتواصل المكالمات بانتظام، جميل جداً ما يحدث. منذ أشهر كنت محرومة من ابني وفجأة انفرجت، وأخبرني رجال الأف - بي - أي، أنهم على استعداد لتمرير مكالمة كل شهر، هذا يعني أن

علاقتي مع زكريا سوف تعود إلى سابق عهدها، وأستطيع مساعدته في بناء حياة جديدة.

في 27 سبتمبر 2002 منذ مكالمة زكريا المفاجئة أصبحت شاردة الذهن، وأرتعش باستمرار، ولم أذق طعم النوم طوال الليل، وذهبت مع بعض الأصدقاء لتناول وجبة العشاء بالمطعم، لكني لم أتمتع بهذه السهرة كما ينبغي؛ لأن كل تفكيري كان منصبّاً على زكريا، ولا أتكلم إلا عن زكريا.

في الساعة الثامنة والربع مساء رن الهاتف، فقزت فرحاً وخوفاً، ولمدة عشرين دقيقة وهم يحاولون تمرير المكالمة عبر الجهات المعنية بالسجن من السنترال والجهة الخاصة بتسجيل المكالمات ...إلخ، فجأة انقطعت المكالمة، وقاموا بطلبي من جديد. هذه المرة كان زكريا على الخط.

- ألو ماما.

من شدة التأثر والفرحة كنت أردد باستمرار، ألو، ألو. أنا والدتك هل أنت زكريا؟

التكلم مع ولدي عملية سحرية، ومعجزة في حد ذاتها. كنت أحاول أن أتصور المكان الذي يوجد فيه، وهل هو مقيد أم لا؟

من بداية المكالمة أخبرني أن المكالمة يمكن أن تتوقف في أي لحظة إذا تكلمنا عن المحاكمة أو ملف القضية.

اكتفينا بالتكلم في أمور سطحية، وأخرى روتينية. أشياء لا علاقة لها بالقضية كلياً ومع ذلك تجرأت أن أسأله عن رسالتي التي بعثتها له عن طريق القنصلية، أخبرني أنه لم يستلمها وسألني عن أفراد العائلة.

بقينا هكذا ندور في الفراغ مدة طويلة دون الخوض في الموضوع الشائك الذي يهمه ويهمني، وهو وضعه القضائي. لم أتلفظ بأي شيء بخصوص هذا الموضوع لكنه تنبأ بما يدور بخاطري.

- لا تقلقي يا أمي سوف أتركهم يفعلون ما يشاؤون، وأدافع عن نفسي.

- أريد أن أسافر إلى أمريكة لزيارتك.

- لا، ليس حالياً لأني سأقوم بإعداد مذكرة الدفاع عن نفسي، وهذا يتطلب مزيداً من الوقت والعمل، إني أريد الانفراد مع نفسي للتركيز. لم أصر أكثر من اللازم لأني لا أريد إزعاجه. يكفي أني سأكلمه هاتفياً بانتظام. هذه معجزة في حد ذاتها.

أخبرته أني ما زلت أحبه، وأفكر فيه طوال الوقت.

- شكراً يا أمي لا تخافي علي سوف أخرج من هنا إن شاء الله.

فجأة انقطعت المكالمة مثل البرق، ويبدو لي أنها لم تدم طويلاً لكنها كانت كافية. كان زكريا في غاية الهدوء واللطف، مقارنة بالمرة الأخيرة التي رأيته فيها في السجن قبل شهرين. أما هذه المرة فكان بإمكاني غلق عيني، والتكلم معه بكل هدوء، وسماعه وكأنه بجانبي. بغض النظر عن التوقيت وظروف المكالمة، ولقد نسيت أن مكالمتنا مسجلة لدى استخبارات السجن. كما نسيت أن ولدي يكلمني من غرفته الصغيرة التي تبعد آلاف الأميال عني ويفصلنا محيط ممتلئ بالمياه والدموع.

(23)

السفر إلى لندنستان

30 يناير 2003 هناك سؤال لا يكف عن التسلل داخلي، كيف وصل زكريا إلى هذا المنعطف الخطر؟ هذا السؤال لا يكف عن التجول بمخيلتي، عندما غادر إلى لندن سنة 1992 كان مجرد طالب يتسم بالهدوء، ويحلم في مهنة طيبة تمكنه من حياة سعيدة وناجحة. بعد سنوات أصبح إسلامياً متطرفاً. ماذا جرى له؟ من أثر فيه، إلى هذه الدرجة حتى نسي كل أهله وذويه ونسي تربيته وثقافته وأصدقاءه.؟ كيف كانت حياته مدة عشر سنوات؟ وهل كان سعيداً أو شقياً؟ وهل كان يعاني من البؤس؟ مثلما ورد في برنامج تلفازي الإسلاميين، أريد أن أطّلع على ماضي ولدي، وسافرت إلى لندن للتحقق في هذا الماضي المجهول، ولأتعرف على أصدقاء السوء. أريد مقابلتهم لأن زكريا كان يخبرني أن له كثيراً من الأصدقاء. أين هم هؤلاء الأصدقاء الآن، بعدما حلت الكارثة بولدي؟

وصل القطار إلى لندن، وكان قد سبقنا الثلج وحط رحاله هناك. كان الجو حزيناً مثل الحزن الذي يخيم على قلبي، وكنت برفقة صحافي اصطحبني ليكون مترجماً أثناء إقامتي بلندن.

راودتني الذكريات من جديد، أنا أتأسف كثيراً؛ لأني لم ألَبِّ دعوته لزيارته سنة 1979، كنت أفضل أن يأتي هو لزيارتي في بيتي الكبير. رفضت زيارته لأنه كان يقول لي إنّه لا يمكنه استقبالي عنده، لأن المبيت الجامعي الذي يسكن فيه لا يستقبل إلا الرجال.

لم أكن أرغب في الإقامة وحدي بالفندق في بلد غريب أجهل لغته، سبق وأن طلبته في الهاتف على الرقم الذي زودني به، ولكن رد علي رجل بالإنجليزية، فقطعت المكالمة فوراً. كم أنا نادمة على عدم قبول دعوته؟ كان بإمكاني إخراجه من هناك، وإبعاده عن أصدقاء السوء، لو زرته وتحدثت معه في تلك الحقبة. لم أكن أعرف ما يدور هنا بلندن، منذ ذلك الحين والندم والحسرة لا يكفان عن تمزيق قلبي، إني ألوم فكري على عدم السماح لي بإنقاذ ولدي. في 31 يناير عند الساعة الخامسة صباحاً لم أستسلم للنوم بعد. كنت أنظر إلى الخارج عبر النافذة، وحل الثلج من جديد ضيفاً على لندن، فكساها بحلة بيضاء في غاية الجمال. كل شيء أبيض بياضه يريح عين الناظر. فجأة سرحت في الماضي. ها أنا أتحسر وأتألم في البلد الذي عاش فيه ولدي عشر سنوات كاملة. بالأمس كنت أشاهد العديد من الصبيان يركضون ويمرحون، بينما يربض ولدي داخل سجن رهيب. أصابني مغص في بطني، كل هذا جعلني أكره كل من يزرع الرعب في هذه الأرض وأحقد عليه. مثل هؤلاء الذين كان ولدي يعيش معهم.

اليوم هو يوم الجمعة؛ يوم صلاة المسلمين جماعة، قررت الذهاب إلى فينسبورى بارك، حيث يوجد المسجد الذي كان يصلي فيه زكريا، لقد سبق وأن رأيت هذا المسجد في التلفاز في مناسبات عدة. البريطانيون يعدّونه معقل الإسلاميين المتطرفين، وكانت كل المنطقة تعدّ منطقة نفوذ لهم، حتى أصبح يطلق عليها اسم لندنستان.

كانت السلطات الإنجليزية في الماضي تغمض عينيها عما يجري هنا، وكان الأئمة بهذا المسجد يلقون خطباً عنيفة جداً، ويطالبون بتدمير الغرب، وسفك الدماء. أنا أتعجب كيف سمحت الحكومة البريطانية

لهؤلاء بالتمركز هنا، والسيطرة على كل هذه المنطقة، وإرساء جحيمهم فيها. جحيم يخضع لنفوذهم وقواعدهم فقط. كل هذا تجاوزني، أظن أنه أثناء هذه المدة تم زرع هذه المنطقة ببذور الحقد والكراهية، ومنذ ذلك الحين وهي تنمو وتتكاثر، والآن فقط بدأت السلطات البريطانية تتحرك وتراقب المساجد، وتوقف الأئمة الذين يشعلون الفتنة ويغذّونها. للأسف فات الأوان لإنقاذ ولدي. لقد تذكرت أني رأيت في التلفاز صوراً لزعيمهم الإمام أبي حمزة. إنه رجل مخيف، فيه من العنف ما يكفي، فهو أعور فقد يده في إحدى المعارك دون شك فعوضها بصنارة معدنية مثل قراصنة البحار القدامى. منظره يوحي للناظر أنه يعيش في القرون الوسطى. بعد أحداث 11 سبتمبر أقام حفلاً خاصاً بهذه المناسبة بحضور كل أنصاره، وتحول كل ما حول هذا المسجد إلى مسرح أفراح، فيما بعد اكتشفت السلطات البريطانية أن كثيراً من الإرهابيين ومن بينهم إرهابيو 11 سبتمبر تخرجوا من هذا المسجد، بمن فيهم ابني زكريا. بعدها تم إغلاق المسجد لكن أنصار أبو حمزة لا يزالون يترددون على هذا المسجد، ويتجمعون أمام بوابته.

أنا أتصور هؤلاء المتطرفين مثل سمك القرش الذي يلتهم أطفالاً أبرياء، مثل ولدي زكريا يستغلون ضعفهم وفقدانهم للحب وهشاشتهم. لقد وصلنا إلى الحي الذي نقصده الساعة العاشرة صباحاً. بقي ثلاث ساعات على إقامة الصلاة، وكل الجنسيات تجمعت في هذا الحي من الأجناس جميعها، كلهم مسلمون والغربيون القلائل الموجودون بينهم اعتنقوا الإسلام أيضاً، أغلب الرجال ملتحون والكل يلبس الزي التقليدي لبلده، أما النساء فأغلبهن متحجبات، وكأنهن أشباح. نحن فعلاً في الحي الذي نبحث عنه.

دخلت إحدى المقاهي العربية لانتظار ميقات الصلاة، ولربما سأجد فيه رفاق زكريا أو من يعرفه. من يدري؟ الجو كان متوتراً. عند دخولي خيم الصمت، وأخذ الكل ينظر تجاهي؛ لأني المرأة الوحيدة بالمقهى، لقد أخذت احتياطي، فوضعت طرحة على رأسي لكي لا ألفت الانتباه. لكن خطتي فشلت. أظن أن الكل عرفني، بدا ذلك من نظراتهم التي توحي أني غير مرغوبة في المقهى.

مرافقي الصحافي بقي بالخارج؛ لأنه غربي ولا يريد أن يلفت الأنظار أكثر من اللازم. كنت وحيدة بالمقهى، لم أشعر بالراحة أبداً. خرجت دون أن أُسأل أي سؤال بخصوص زكريا، وشعرت بالرعب من هؤلاء الجلوس.

خارج المقهى لا يمكن الوقوف بمكان ما، لأن الشرطة تراقب الحي وما حول المسجد. اتجهنا أنا ومرافقي إلى حي مجاور. لاحظت أن الكل يتجه إلى أحد البيوت، إنهم ينتظرون أبو حمزة.

دخلت إلى هذا البيت مثل كل الناس للاطلاع على ما يجري بداخله، هناك إمام يرتل القرآن بواسطة مكبر صوتي، كنت أسمعه دون أن أراه؛ لأني داخل الغرفة المخصصة للنساء. خطاب الإمام لم يكن لطيفاً إنه مفعم بالحقد، ويوحي بالحرب، وكله حقد وكره تجاه الغرب والغربيين. ومن يسميهم بالخونة الكفار، كل الحاضرات تنظرن لي باحتقار واشمئزاز، تتساءلن في داخلهن ماذا أفعل هنا، شعرت بعدائهن لي. واحدة منهن طلبت مني إخفاء شعري الخارج من الطرحة، مع أننا بين حريم، امتثلت لطلبها وأخفيت ما ظهر من شعري، بعضهن تعرفن علي وقلن لي إنهن رأين زكريا في الماضي، ولكن كلهن رفضن التكلم عنه، وإعطائي أي معلومات عن أصدقائه، أو من كان يتردد عليه. قرأت الخوف في وجوههن،

من يخيفهن يا ترى؟ مني أنا، من السلطات الإنجليزية أو من أزواجهن؟ من المستحيل معرفة ذلك.

بعد الصلاة تجمع كل الناس في الخارج في انتظار وصول أبي حمزة، من بين الحاضرين هناك صحفية، من هيئتها يبدو أنها تعرف المنطقة جيداً، اقتربت مني وسألتني ماذا أفعل هنا؟ عرفَتْ أن وجودي في هذه المنطقة له غاية أخرى غير الدين. أجبتها أني جئت لأقابل الشيخ أبا حمزة.

- لا تقلقي سوف يأتي ويستقبل كل أنصاره.

وقفت قرب أحد الشبان كان يبدو من شكله أنه جزائري لا يتجاوز العشرين سنة، كان مقنعاً ويصرخ باستمرار.

كان كثيرٌ من الناس يتدافعون في الشارع، مما أجبرني إلى اللجوء قرب رجل ملثم يبدو أنه من حراس الشيخ، فسألته عن الشيخ وهل سيأتي أم لا، قال لي:

- لماذا تسألين عنه؟ قال ذلك بعنف.

- أريد التكلم معه.

- لا يمكن، لا يمكن لامرأة الاقتراب منه.

أصررت على موقفي، فقال لي من جديد:

- يمكن أن أعرف ماذا تريدين منه؟

- قلت له أن ذلك شيء خاص بيني وبينه.

- انتظري هنا سوف نرى.

قال ذلك بعد أن تفحص وجهي جيداً.

انتظرت ساعتين، وفجأة حصل تجمع وفوضى غريبة ماذا أرى؟ هذا أبو حمزة في وسط التجمع يحيط به عديد من الرجال الملثمين، هناك حوله فوضى وغليان لا مثيل له، وجدت نفسي بين هؤلاء المتطرفين كأني في عالم آخر وفي زمن آخر.

هناك رجل غربي بجانب أبي حمزة لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره. بدأ يلقي خطاباً عنيفاً: إنكم محاطون بالأعداء، ويجب إبادتهم وقتلهم، قتل كل هؤلاء الكفار، لقد كان يصرخ بأعلى صوته، ويقول: القرآن يدعوكم إلى نشر الإسلام في أنحاء المعمورة كلها، وقد حان الوقت لغزو العالم، ونشر الإسلام، سوف يعود المهدي ليعاقب كل من أخطأ. كان الشباب يصلون ويصرخون معه الله أكبر، لم أصدق ما يحصل، خجلت مما يفعلون. كيف يمكنهم القيام بمثل هذا العمل ببريطانية بالذات التي استضافتهم وآوتهم؟ أنا لا أدّعي أن كل شيء على ما يرام هنا ببريطانية ولكن كيف يتجرؤون على المطالبة بالقتل؟ من سمح لهم بإلقاء هذه الخطب؟ هل نسوا أو تناسوا البلدان التي قدموا منها، ولو فعلوا هناك ما يفعلونه ببريطانية لكان مصيرهم كلهم السجن، أو أكثر من ذلك لمجرد التفوه بكلمة واحدة ضد النظام.

عندما سمعت هؤلاء الرجال الذين يطالبون بالموت للكفرة، تذكرت زكريا كيف كان يجلس مع هؤلاء القتلة المجرمين؟ كيف كان يؤّمن لهم؟ هو الذي كان يحب العيش في فرنسة وفخور بذلك، كيف ذلك وهو لا يحب العنف، ولا يتبناه؟ هذا غير معقول لا بد أنهم أخضعوه لغسيل المخ.

بعد هذه الخطبة الهائجة جلس أبو حمزة على ركبتيه وقرأ بعض الآيات القرآنية ثم وقف، وبدأ يخطب. كانت كلماته أقوى من كلمات من سبقه، وكان لا يتكلم إلا عن ضرورة إعلان الجهاد للدفاع عن الإسلام المهان، وشعرت عبر كلماته المدوية أن الحرب على وشك الاندلاع حرب بلا رحمة؛ حرب شاملة لا ينقصها إلا الأسلحة وتبدأ الحرب، شعرت بقشعريرة تتسلل إلى كل جسمي إنها قشعريرة الرعب.

تمالكت نفسي وطلبت من مجموعة من الشبان المغاربة مساعدتي للوصول لأبي حمزة. بعد دقائق كنت واقفة أمامه، أمام رجل حوَّل ابني إلى إسلامي متطرف، وسوف أعرف كل شيء عن شخصية هذا الرجل الذي وثق فيه زكريا، وأصبح إرهابياً، التفت إلي وتفحصني بعمق وهدوء، وكأنه يعرفني وأعرفه، أظن أني قرأت رسالة في عينيه «لا تسأليني كثيراً». بدأ يتكلم هو أولاً.

- أنا لا أعرف ولدك، لكني أعرف قصته.

طبعاً، أنا لا أصدقه، ولكن ما العمل؟ إني كنت محاطة من كل الجهات بحراسه وأنصاره الحاقدين المتعصبين قلت له: إذاً أنت تعرف أن ابني يواجه الإعدام المسلط عليه من كل جهة؟

- نعم.

- زيادة على ذلك، فإنه يرفض مساعدة المحامين له ورفض المحامين وسوف يضره بالطبع أخبريه بذلك، وقولي له إن هذه النصيحة هي نصيحتي، فليتعامل مع المحامين، ذلك أفضل له، لو كان أسامة ابن لادن، لكان ذلك معقولاً قال ذلك مبتسماً.

كنت أريد سؤاله من جديد، لكن أحد رجاله تدخل، وطلب مني المغادرة.

المقابلة بحد ذاتها كانت بمنزلة الامتحان؛ امتحان صعب، فالرجل ذو شخصية قوية تنبعث منه قوة عظيمة تجبرك على احترامه وطاعته، له نفوذ قوي يتسم بالعنف الشديد الذي يرفع من دقات قلب كل من يواجهه مهما كانت شجاعته وقوته.

قبل مغادرة المكان اغتنمت الفرصة للتحدث مع بعض الشبان الموجودين حولنا، كنت أريد أن أنصحهم ألّا يسلكوا الطريق نفسه الذي سلكه ولدي، وألّا ينجروا داخل دوامة العنف.

كانت وجوههم تشبه وجوه الملائكة، وشرحت لهم أن الإسلام هو رسالة حب ورحمة واحترام وسلام ولا شيء غير ذلك، أما هم فكانوا يصارحونني بحقدهم وقلقهم وهمومهم وآلامهم. طبعاً إني أتفهم إنهم يواجهون العنصرية يومياً، ولكني حاولت إقناعهم بعدم الرد على الإساءة بالإساءة مثل ما يأمرنا الإسلام، ثم قلت لهم: الرد على العنصرية يجب أن يكون بالتصرف المثالي والأخلاق الفاضلة، والعيش في توافق تام مع الآخرين، مع كل الأجناس وكل الأديان.

لاحظت أنه لا فائدة من النقاش معهم؛ لأن التعصب يسكنهم، والإجابات مطبوعة وجاهزة، وهذه بعض منها؛ لا تقلقي يا مدام «الله سيتدبر ويتكفل أمرنا» كيف أشرح لهم أنه قبل المغادرة إلى العالم الآخر لمقابلة الله عز وجل، يجب التصرف بأدب وإنسانية مع الآخرين في الأرض وعدم إيذائهم.

كنت أتفحص هؤلاء الأبرياء وأتألم، كيف لا؟! والبراءة والنقاوة تكسو وجوههم، ولكن كلامهم صدمني، كان من الأجدر لهؤلاء الأولاد ألّا يعرفوا إلا الحب والبراءة، ولكن العكس هو سيد الموقف. إنهم يتطلعون إلى الحرب التي أعلنها أسلافهم المتعصبون، والعدوى تمكنت منهم وأصبحوا جاهزين ليسلكوا الطريق نفسه الذي سطره من سبقهم.

تأكدت من كل هذا وما حصل لولدي الذي عاش عشر سنوات كاملة هنا، وتغذى من هذه الخطب الحاقدة، وترعرع بين شباب، قد دمر تفكيره من العمق، وأصبح كل شيء لديه أسود أيضاً.

بعد أن رأيت بأم عيني، أين قضى عنفوان شبابه، تأكدت وعرفت سبب إصراره على موقفه ورفضه المحامين، فهو يريد الشهادة والبطولة، ويريد إرضاء أساتذته بلندن، ويريد أن يظهر لهم أنه من خيرة تلاميذهم.

في صباح الغد ذهبت إلى سكن الطلبة، حيث كان يعيش زكريا لأتأكد من أقوال أخيه عبد الصمد الذي كان يدعي أن زكريا يعيش في ظروف بائسة، ويعيش من صدقة الجمعيات الخيرية، وتأكدت من العكس لأن المبنى الذي كان يسكنه مقبول جداً، ولم أتصور أبدًا أن ولدي كان يعيش في كوخ تحيط به النفايات، قابلت صاحب المبنى فأخبرني أن زكريا كان من الطلبة الذين يتسمون بالهدوء والصبر، ولا يشتكي من أي شيء أبداً، إنها شهادة صادقة لكنها لا تسمن ولا تغني من جوع.

إني ألوم نفسي؛ لأني لم أحاول إنقاذه وتركته بين أيدي هؤلاء الرجال؛ الذين استغلوه لخدمة مصالحهم وتعطشهم إلى السلطة، وعندما رجع أول مرة من لندن، قلت لنفسي سوف يعود يوماً مع زوجة وأطفال، ولكنه لم يجلب لي سوى الحزن والهم.

عند عودتي إلى فرنسة بالقطار كنت أفكر أثناء السفر في هؤلاء الشبان الأبرياء الذين قابلتهم، كانوا في مثل سن زكريا، عندما غادر إلى لندن، مثلهم مثل زكريا دخلوا في دوامة لا يعرفون عقباها ولا نهايتها، هم أيضاً يواجهون الخطر، وسوف يلحقون بذويهم العذاب والحزن، سوف يموتون ويعرضون أمهاتهم إلى المحنة نفسها التي ارتويت منها.

لقد ارتحت لأني غادرت هذا البلد، رأسي محمل بذكريات العنف والحقد وكل ما اكتشفته دمر معنوياتي، كان من الصعب إقناع زكريا بالخروج من هذه الدوامة، ولا يمكن إقناع متعصب بالعودة إلى الرشد والتعقل، حتى حب الأم غير المحدود لا يكفي لإخراجه من هذا الجحيم.

(24)

مساندون في الخفاء وآخرون شامتون

في شهر مارس 2004 وجدت رسالة في صندوق البريد، قبل فتحها عرفت ما بداخلها، لأنني بمرور الوقت تعلمت كيف أقرأ رسالة قبل فتحها، لا وجود لاسم المرسل، بخارجها اسمي مكتوب بالحروف الكبيرة، أنا أعرف محتواها سلفاً، شتم وسب. فتحتها بمزيد من الرغبة في الاطلاع على مضمونها، والتأكد من سخافة المرسل وقساوته، كثير من الأصدقاء يتمنون لولدي أن يشوى مثل الخنزير في الكرسي الكهربائي، سبق أن تسلمت مثل هذه الرسائل كان قد كتبها أناس حاقدون لا يفهمون أني أم تساند ولدها، ولا تساند أفعاله وأفكاره. في الخفاء أحتقرهم لأن الحقد يسكن بداخلهم، منذ بداية قضية ولدي تخلى عني العديد من الأصدقاء، وكأن أفكار ولدي حكمت علي بالعزلة، لم أكترث كثيراً من هذا التصرف الحقير، إن ما يؤلمني أكثر هو تصرف صديقي من بلدة ناريون، يتهرب عند رؤيتي ويلجأ إلى الرصيف الآخر. بعد ما كنا من قبل نتقابل بالعناق والترحاب والقبلات، كل هذا لا يهم لأن هناك كثيراً من الأصدقاء الذين يساندونني يومياً، ويقولون لي اصبري وتحلي بالشجاعة. كثيرٌ منهم عندما يقابلني في الشارع ويغمرني بابتسامة لطيفة أو كلمة طيبة، باسم كل الأمهات، لشكري على ما أفعل من أجل ابني، رسالة كل هؤلاء هي رسالة أمهات تعرفن أن حب الأبناء، هو حب أبدي لا يزول، وعند ضلال أبنائهم يجب مساعدتهم للرجوع إلى الصراط المستقيم.

أحتفظ بالعديد من هذه الرسائل التي تساندني في السراء والضراء، فهي تدعمني على مواصلة المعركة وخصوصاً في أوقات ضعفي عند مواجهة صعوبات لا يمكن تجاوزها، دون هذه المساندة، كيف أصمد وأواصل المعركة؟ لم أشعر يوماً من الأيام أني وحدي. هناك أصدقاء لا يكفون عن مساعدتي، فمنهم من يستقبلني في بيته عند الضرورة، ومنهم من يقوم بجمع التبرعات لمساعدتي في السفر إلى أمريكة عند الضرورة أيضاً، ومنهم من يكتفي بمواساتي عندما تكون معنوياتي منحطة.

اليوم جاءني خبر يفيد أن فرنسة ستتناقش مع السلطات الأمريكية بخصوص قضية ولدي، لقد شعرت بالخيانة من قبل هذا البلد الذي أحببته وعشقته، الذي سيبدأ في تبادل المعلومات عن ملف ابني مع سلطات لا تتمنى إلا الإعدام لولدي، وهنا بفرنسة يحاولون تلقين أمريكة درساً في الأخلاق، مدعين أن الحكم بالإعدام ظاهرة بربرية، والآن يركعون أمام هذه السلطات لتزويدها بمعلومات كافية لإرسال ولدي إلى الكرسي الكهربائي، لا أفهم شيئاً أين هو بلد الحرية والأخوة والعدل الذي عرفته عند قدومي إليه؟ منذ بداية هذه القضية لم أتلق أي تشجيع ولا أي مساعدة من طرف الحكومة، ولم يحرك أحد ساكناً من أجل زكريا، كل ما قيل لي هو: سوف نعمل اللازم عندما يحين الأوان، إذا لم يتحركوا اليوم متى سيتحركون؟ بعد إصدار الحكم بالإعدام دون شك. كم من مرة تدعي السلطات الفرنسية أنها لا تستطيع فعل أي شيء لإنقاذ زكريا، بالإضافة إلى ذلك إنه لم يطلب منا رسمياً الدفاع عنه، يظنون أني غبية إلى هذه الدرجة، وسوف أصدق ما يقولون، أليس لهم الإمكانيات للذهاب لمقابلة زكريا في السجن، وتقديم النصح له؟ أليس بإمكانهم استقبالي لمساعدتي

على استيعاب، نظام العدالة والقضاء الأمريكي وفهمه، بدلاً من هذا، إن كل ما فعلوه هو تركي لمواجهة القضاء الأمريكي بمفردي.

كل الأفكار السيئة تدور بخاطري. هل كانت السلطات الفرنسية سوف تتصرف بهذه الطريقة لو كان المسجون فرنسياً أبيض أو ثرياً؟ إني ألومهم؛ لأنهم أجبروني على التفكير بهذا المنطق؛ ولو ثانية واحدة، إني لا أريد مواصلة المعركة تحت تأثير هذا المنطق؛ لأن معركتي معركة عدالة، هذا كل ما في الأمر. ليست هناك رسالة سياسية، لكن لا أفهم تصرف فرنسة تجاه هذه القضية، ولا أريد من الحكومة الفرنسية خوض المعركة لوحدها، كل ما أريده هو الدفاع عن الحق.

كنت أتمنى أن يحاكم في فرنسة؛ لأني أعرف سلفاً أنه لو حوكم هنا، كان سيحكم عليه فيما فعله لا فيما فكر فيه، لكن فرنسة لم تبذل أي مجهود بهذا الخصوص.

إذا تعاملوا مع السلطات الأمريكية بخصوص هذه القضية، وتم إعدام ولدي سوف أحملهم المسؤولية؛ مسؤولية تعاونهم مع أمريكة من أجل إعدام ابني.

كيف أقاتل بمفردي، وأواجه أكبر قوة في العالم وهي لا تريد إلا الثأر. قبل المحاكمة كنت أتمنى وقوف العائلة ومساندتها لي في المعركة لكن، هذا لم يحصل.

(25)

عائلة ممزقة

في شهر يونيو من سنة 2004 كانت أعصابي متوترة للغاية، بعد ساعات سوف أقف أمام المحكمة، لقد كانت محكمة أخرى، هي محكمة أطفال، والعدالة هنا لا ترحم، سوف تحكم العدالة في قضية حفيدي ضد والدهما.

حكم عليه القاضي بإيوائهما عندي، ولكن والدهما رفض هذا الحكم، إنه يريد حرماني ممن أحب، وكان أحدهما لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، والآخر الثامنة من العمر، وعلى الرغم من ذلك فقد وقعا في دوامة تتجاوز أعمارهما، أولياؤهما مطلقان. وبما أن صحة أمهما (جميلة) لا تسمح لها برعايتهما، فهما يتنقلان من مبيت خيري إلى آخر اجتماعي، أستقبلهما عندي كل خمسة عشر يوماً، كل زيارة لهما أعدّها أشعة شمس تسللت إلى بيتي، إن زيارتهما تغمرني بالحب والعطف والنشاط، كم هما بحاجة إلى المداعبة والرعاية، نحن نقضي أوقاتنا كلها في تبادل قبلات الحب والود، وإني أعمل كل ما في وسعي لأحميهما من العنف الذي يسيطر على هذا العالم، ذلك العنف الذي سلبني ولدي. بتعاونهما عوضت ما فاتني من حب وعطف. عند مغادرتهما أصبحت أعيش في فراغ لا يطاق ولا يذاق. اليوم سوف يذهب الابن الأصغر ليعيش مع والده، أما أخته الكبرى فلا تزال حبيسة المبيت. إن زوج ابنتي السابق لا يريد مقابلتي ولا يرغب

فيها، فتوجهت إلى العدالة لتعيد لي حق الجدة في الزيارة، كنت أظن أن القضية سهلة، لكن ذلك في الخيال فقط. إنها معقدة مثل قضية زكريا.

حتى تاريخ 2001 كانت الخدمات الاجتماعية تؤدي واجبها بكل صدق وأمانة، بعد حلول قضية زكريا تغير كل شيء، وأتخيل أحياناً أنهم لا يرون فيّ إلا أم إرهابي.

لو لم يحصل كل هذا لزكريا، لكان أحفادي في بيتي بانتظام مثل أي جدة، لكن قضية زكريا لوثت كل شيء، اليوم أصبحت أصارع من أجل الحصول على حق الزيارة فقط.

شعرت بداخلي، كأن الخدمات الاجتماعية تريد إشعاري أني أصبحت غير مرغوبة لأكون جدة صالحة، لقد أصبحت إنسانية مشكوكاً في أمرها، وربما مذنبة أيضاً لأني أم زكريا الإرهابي. إنهم على وشك أن يقولوا لي إنك أصبحت خطراً على الأطفال، أي خطر؟ هل يظنون أني أمليت على زكريا كل هذه الأفكار التي قادته إلى ما هو فيه اليوم؟ وهل يظنون أيضاً أني سأقود أحفادي إلى المصير نفسه؟ هل يظنون أيضاً أني أقضي كل وقتي في عرض ملف ابني على أحفادي، أو عرضه على رجال الصحافة؟ لم أفعل ذلك من قبل ولست على استعداد لفعله اليوم.

لقد سلبني أولادي لقب الأم، واليوم يريد الآخرون تجريدي من لقب الجدة، وحرماني من أحفادي. بعد معركة مريرة أنصفتني العدالة شيئاً ما، حيث سمحت لي باستقبال أحفادي مرة كل شهر، وعلى الرغم من هذا النصر بقيت المرارة في حلقي. إن قضية زكريا أصبحت تتسلل إلى كل حياتنا، وتؤثر في كل من هو قريب منه، حتى الأبرياء مثل حفيديّ لم يسلما

من شر هذه القضية، ما ذنبهما أن زكريا خالهما؟ في هذه اللحظة ألومه وأقول له: ماذا فعلت يا زكريا؟ دمرت حياتك ودمرت حياتي، وجنونك يجرف كل شيء في طريقه، حتى من تدعي أنك تحبهم أصبحوا يعانون من شرّك.

في شهر أغسطس سنة 2004، سافرت إلى المغرب لأمحي الحزن الذي يسيطر على حياتي، شعرت أنه ربما أخلد للراحة في مسقط رأسي، وبمجرد وصولي إلى هناك فقدت الأمل وخاب ظني، لقد تغيرت الأوضاع في المغرب شيئاً ما، حتى الشارع تغير، وأصبح الدين هو سيد الشارع، النساء المحجبات ينظرن باحتقار إلى غير المحجبات، والرجال الملتحون غزوا الشوارع، وكذلك الملابس التقليدية، والزي الباكستاني بالذات، ذلك الزي المحبب للإسلاميين وهم يمشون في الشوارع بتعال صارخ، أصابني الجمود من كل ما رأيت.

الدين منتشر في كل مكان، أحداث 16 مايو 2003 في الدار البيضاء أحدثت شرخاً في المجتمع المغربي، بعض الأصدقاء هنا صارحوني، أن البنات المحجبات إنما تحجبن خوفاً من المشكلات أو لتجنبها، وكل الناس يعرفون ذلك ولا يحبذوه، لكن الخوف يجبرهم على السكوت والتخفي، إنه شيء غير معقول. ليس هناك كلمات للتعبير عن ما يحدث هنا، كثيرٌ من النساء قلن لي إنهن تحجبن لتفادي المشكلات وتجنبها.

أما الشباب، فهمهم الوحيد هو الهروب إلى الخارج، إلى فرنسة بصفة خاصة. الكثيرات من البنات ترتمين في أحضان أول سائح أجنبي للزواج منه، وعبور المحيط إلى الخارج. يعدّ هؤلاء السياح مجرد جواز سفر

للهروب من الجحيم، أما البنات فلا حب لهن ولا ضمير. إنهن تفكرن أن البنات الأوروبيات لا تعرفن إلا الفسوق والزنى.

الغريب أن بعض أبناء جلدتي يعرفون القوانين الفرنسية أكثر من الفرنسيين أنفسهم، هم يعرفون كل شيء عن البطالة، وعن التأمينات، وعن مدة التوقف والحقوق المترتبة عليها، والخدمات الاجتماعية وغير ذلك. هم يعرفون حتى وجود المنظمات الخيرية وأنظمتها. ومن هنا فهم يعدون فرنسة جنة يمكن أن يجنوا منها الكثير.

تفكيرهم هذا أزعجني كثيراً، كل همهم هو استغلال الآخرين فقط دون أي مقابل، ولا تهمهم حياة الآخرين للوصول إلى غايتهم فقط، لا يمر أسبوع دون أن أسمع أن بنتاً فرنسية من أصول مغربية تخلى عنها زوجها المغربي بعد أن حصل على الإقامة الرسمية بفرنسة، كل واحدة منهن كانت تظن أنها وجدت عريس الأحلام، ولكن سرعان ما تكتشف أن هذا العريس استغلها لاستخراج وثائق الإقامة والعمل فقط، بعضهن ينجبن ولداً أو بنتاً وينتهي أمرهن بالطلاق، وهن مذمومات مكروهات مهجورات غير مرغوب فيهن، كلهن تزوجن للحصول على تذكرة درجة أولى إلى فرنسة، دون عودتهن. كل هذه التصرفات تبعث علي التقزز والاشمئزاز من هذه المعاملة، إذ كيف يمكن الاستهزاء بالبشر، ومعاملتهم مثل هذه المعاملة الدنيئة؟

وعلى الرغم من خبرتي في الحياة وحذري، لم أستطع منع ابنتي جميلة من الوقوع في هذا الفخ نفسه. مسكينة كانت تظن أنها تزوجت فارس الأحلام، لكنها اكتشفت أنه استخدمها كجواز سفر للعبور فقط،

بعد إنجاب ولدين رماها في الشارع بعد أنْ حصل على الوثائق المطلوبة للإقامة والعمل، وضحت ابنتي بشبابها وصحتها، والغريب في كل هذا أني ساعدتها في استقدامه من المغرب، واليوم رفع دعوة ضدي لمنعي من رؤية أحفادي، هكذا يرد الجميل بالإساءة لي.

ليست لدي أي صلة بالمغرب المعاصر لأشاركهم طريقة حياتهم ولا طريقة تفكيرهم.

إني أفكر أكثر فأكثر في زكريا الذي ولد بفرنسة، وحصل على الجنسية الفرنسية وضيع كل شيء، لو ولد في المغرب وذاق طعم البؤس، لكان من حقه أن يتمرد دون أنْ يلجأ إلى التطرف، كان بين يديه كل ما يحلم به أي شاب مغربي، الحرية والعيش في رفاهية، ولكن لست أدري لماذا تخلى عن كل هذا، وأدار ظهره له.

أقمت عدة أيام عند العائلة، وكنت أفكر أني سأجد المساعدة والدفء والمواساة لدى أخواتي وإخواني، لكني وجدت الحسد والطمع والجشع، ولم أجد الحنان ولا الرحمة التي أنا بأمس الحاجة إليهما. لا أحد سألني عن زكريا. الكل لا يريد إلا استغلالي فقط. ما عدا أخي في الرضاعة مولاي العربي الذي لا يكف عن مواساتي، كل ما يهمهم هو المال فقط. كم سيجنون، فهذا طلب مني أن أرسل له غسالة، وذلك طلب مني أحذية أو مالاً. الكل لا يكف عن المطالبة.

بمرور الوقت بعد أن نجحت في حياتي، زادت غيرتهم وحسدهم لي، فالعائلة لا ترحم، وبما أني أعيش في فرنسة يجب أن أعطي دون تردد. أعطي دون محاسبة ولا حساب، وهذا ما كنت أفعله. أعطيتهم المال،

واشتريت لهم الإلكترونيات والملابس، لكن كل هذا كان غير كاف. كان يجب عليَّ أن أعطيهم كل ما أملك حتى وإن كلفني ذلك العيش في الفقر والبؤس، لكن الأشياء لم تبدُ لي هكذا، فعملت وتعبت لكسب حياتي، وبناء استقلاليتي وتأمين مستقبل أولادي.

اليوم إخواني وأخواتي يعدّونني خائنة، وكانوا يظنون أني سأوزع عليهم كل ما أكسب بعرق جبيني، ولكن في المقابل ماذا فعلوا هم تجاهي. أين كانوا عندما كنت بالأمس في حاجة إليهم؟ أين كانوا عندما كان زوجي يهددني أنا وأطفالي بالقتل؟ منذ أن بدأت صوري تظهر بالميديا لأتكلم عن زكريا زاد جشعهم، وكنت أنتظر مساعدتهم - لكنهم لم يروا فيّ سو بقرة حلوب تدر لبناً فقط. ماذا يظنون؟ هل يظنون أني أصبحت من النجوم الكبار. بمجرد أن ظهرت في التلفاز أو في المجلات أو الجرائد، ويظنون أني أتقاضى مالاً بمجرد ظهوري أمام الميديا. إن العكس هو الحاصل، تنقلاتي ومكالماتي كل هذا يكلفني كثيراً من المال. لا يهمهم كل هذا. أين احترامهم لي؟ منذ أن غادرت المغرب لم يتغير شيء، التقاليد هي نفسها، إنهم يعدّونني مُلَكاً لهم، كأن حياتي ومعاناتي وحالتي النفسية لا تساوي شيئاً مقابل جزمة نايك أشتريها لهم، وأدفع ثمنها ببطاقة تأمين. لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا، لقد انتظرت حياتي كلها لعلي أجد كلمة شكر أو احترام من أهلي، لكني اكتشفت اليوم أن قليلاً من الاحترام الذي يكنونه لي اشتريته ودفعت ثمنه سابقاً، سواء بالهدايا أو بحوالة مالية.

لقد ساعدتهم كثيراً، لقد استقبلتهم واستقبلت بناتهم ببيتي، ورعيتهن بعطفي وحناني وحبي، وماذا جنيت من كل هذا لا شيء سوى النقد واللوم.

لقد تأكدت أنه من الصعب التعامل معهم تعاملاً عائلياً. كل حياتهم نفاق وحسد وتنافس. مللت من العطاء دون مقابل.

بعد هذا قررت أن أعود إلى فرنسة قبل الموعد، هذه الإجازة لم تجلب لي سوى المرارة. منذ حبس زكريا تفاقمت الأوضاع بيني وبين أهلي، وكنت أظن أن الأمور سوف ترجع إلى طبيعتها، ويلتف الجميع حولي للدفاع عن أصغر ولد في العائلة، لكن ما حصل هو العكس. كل واحد اغتنم فرصة ضعفي لتصفية حساباته معي، وعبد الصمد ولدي الأكبر هو أول من أعلن الحرب علي، ومنذ زمن وأنا أعاني من حقده واحتقاره لي. تدهورت العلاقات بيني وبينه حتى أصبح اليوم لا يكلمني، ويعدُّني عدوه الأكبر. يبدو أن فوزية ابنة خاله أسكنت دودة بداخله، ومنذ أن دخلت بيتي أقنعت ولدي أن يعاملني مثل آخر متخلفة في المغرب، مثل كل امرأة مستسلمة لزوجها، من جهة أخرى لقد اكتشف هو أيضاً الإسلام «إسلام التخلف والرجعية» الذي لا مكان للمرأة فيه، فرفضت حكمه علي وانتقاداته واحتقاره لي، ورفضت إهانته ووقفت ضده، ومنذ ذلك الوقت، وهو يعاديني.

عندما بدأت قضية زكريا لامني على مقابلة الصحافة والدفاع عن زكريا، وماذا فعل هو للدفاع عن أخيه؟ لا شيء، بالعكس لقد حاول إغراقه بشتى الوسائل، حتى أصبح يوماً ما بمنزلة القاضي يصدر الأحكام على أخيه، ويقول: إنه لم يفاجأ بما فعله أخوه، وكل هذا مكتوب في جبينه. ادعى أن كل ما حصل لزكريا هو بسببي، لأني ربيتهم على الطريقة الغربية، واليوم أدفع ثمن هذه التربية، هل نسي بكاءه وهو صغير؟ عندما كان والده يهدده ويضربه. هل نسي أني عملت كل حياتي لأوفّر لهم الأكل والملبس والمسكن؟ بينما والدهم تخلى عنا دون سبب والثلاجة خاوية. هل نسي

أنه كان سعيداً، وهو يخرج من المدرسة ويجلس مع رفاقه لاحتساء القهوة في أفخم المقاهي والملاهي؟ أظن أنه اغتنم هذه الفرصة لتشجيع الطائفة الإسلامية التي ينتمي إليها لأنها طائفة مناهضة لتلك التي انخرط زكريا فيها. لقد أصبحا يعاديانني بعد أن عميت أبصارهما بالتطرف والتعصب، يا ترى ماذا يفعل عبد الصمد اليوم؟ أعرف أن قلبه مفعم بالحقد والكراهية. هل هدأ اليوم؟ إذا جاء وطلب مني العفو مثل ما فعله زكريا أظن أني أعفو عنه، وأنسى كل المعاناة التي ألحقها بي، وكل الجروح التي تسبب فيها، وأعامله من جديد معاملة الأم لولدها؟

هذه القضية أشعلت النيران بين أفراد العائلة الواحدة. ابنتي نادية تلومني منذ مدة على قلة الاهتمام بها «لا تفكرين إلا في زكريا»، مع أنه هو الذي أغرقنا في الوحل، ومن الأفضل الاهتمام بنا أكثر. كانت تردد ذلك باستمرار، تلك هي اعتراضاتهن نتيجة الغيرة بالطبع.

منذ مدة أصبحت علاقتي مع ابنتي متقلبة جداً، مثل الطقس يوم مشمس، ويوم ممطر. أحياناً تتفهمان عمق كفاحي، وتفهما أني لا أكافح من أجلي لأني لا أجني من وراء ذلك إلا الألم. من جهتي فهمت كم هما بحاجة إلى العطف والحنان نظراً لضعفهما ونظرة الآخرين لهما «أختي الإرهابي». لا شك أنهما بحاجة إلى الحب الذي افتقدتاه في الصغر، وسلب منهما في الكبر، فهما بحاجة إلى الأمن والأمان، نظراً لما عانياه منه في الصغر، وخصوصاً جميلة. منذ الشهر الثالث بعد ولادتها أصبح والدها لا يطيق بكاءها. كم من مرة حولت عنفه إلي لكي أجنبها ضربه المبرح، لكني لم أفلح دوماً في حمايتها؛ لأنه كان يضربها مثل ما يضرب الكلب الذي يتمادى في النباح، وبمجرد بكائها ينهال عليها ضرباً، منذ ذلك الحين

وأنا أحاول أن أمحي أثر ذلك من أعماق قلبي، أنا دوماً موجودة بجانبهما عندما تحتاجان إلي، أطلبهما بالهاتف عدة مرات في الأسبوع للاطمئنان عليهما. مع أن المعركة على عدة جبهات ترهقني وتصيبني بالجمود، لكن الأولوية تبقى لزكريا. يجب أن تفهما أن أخاهما مهدد بالإعدام، وهذا هو سبب تفكيري فيه باستمرار، وكل طاقتي له لأنه إذا تم إعدامه لا يمكن لأحد ملاحقة الزمن ويفوت الأوان.

هذه القضية ضاعفت من غيرة ابنتي، غيرتهما من زكريا، مثل غيرة الأطفال الكبار من أخيهم الأصغر، لأنه عادة ما توجه له عناية كل العائلة، ويكفي أن ألقي مؤتمراً صحفياً أو أستلم رسالة من المحامي بخصوص قضية زكريا، حتى تظهر أول شرارة وتطالباننني بمزيد من الاهتمام بهما، لا تنفكان عن المطالبة بذلك، حتى تفلت أعصابي. كثيراً ما تقولان لي: انظري لا وجود لنا، ولا تفكرين إلا في نفسك وفي الإرهابي.

ماذا أرد على هذا الافتراء، هناك رغبة في الهدم بداخلهما تجبرهما على إيذائي، وتعميق جراحي. هن مثل الطفل الذي يعرف نقطة ضعف أمه لإيذائها، تعطشهما للعطف والحنان والاهتمام بهما، لا يمكن احتواءه لأنهما لا يمكنهما الاعتماد على عطف أبيهما ولا أخيهما، ولا زوجيهما. بالرغم من كل ما أحيطهما به من عطف وحنان، فلا يمكن لي ملء هذا الفراغ الكبير. بالنسبة لأم مثلي همها الأكبر هو عدم القدرة على إشباع رغبة أولادها وبناتها؛ هذه الرغبة الشيطانية التي كثيراً ما أكون أنا أول ضحاياها.

فكرت كثيراً في تلك الأيام التي كانوا يتنقلون فيها من مبيت إلى آخر، تلك المدة التي كانوا يواجهون فيها الخوف وعنف أبيهم المتزايد، الذي حرمهم من الحب الذي يجرون وراءه اليوم. إني أحقد على زوجي وأهلي

الذين رموني في أحضانه بأرخص الأثمان، كما ترمى المخلفات في القمامة، وأولادي يدفعون الثمن اليوم.

قضية زكريا أحدثت زلزالاً في حياتي، لقد أسهمت في تعميق جراح أولادي، وتحميلهم أعباء فوق طاقتهم. كم من مرة نصحني أصدقاء لي بترك كل شيء، والتفرغ لمن هم معي فقط، والتخلي عن من لقي مصيره وضيع نفسه. لكني لا أستطيع ذلك، كيف تتخلى الأم عمّن أنجبته وأحبته، كيف تتركه يواجه الموت وحده؟

يجب أن أستمر في مساندته، يجب أن أتابع المعركة حتى الرمق الأخير من حياتي، حتى وإن كلفني ذلك دمار حياتي.

(26)

مكالمات موجعة

في سبتمبر 2004 في كل يوم ثلاثاء من كل شهر منذ سنتين تعودت على استقبال مكالمة من زكريا، أستقبل المكالمة في مركز شرطة ناربون في القسم المخصص لإدارة مراقبة الحدود. فهم الذين ينسقون مع الأف - بي - أي التي تقوم بتسجيل ومراقبة المكالمة، وقطعها في أي لحظة إذا اكتشفوا أن المكالمة تحتوي على شيء مشكوك فيه. لقد تعودت على هذه الإجراءات والتوصيات والشروط الغريبة، وكل هذا لا يؤثر على السعادة التي تغمرني كلما أكلّم زكريا.

اليوم أنا قلقة عليه كثيراً؛ لأن زكريا تغير عن قبل. كانت مكالماته تريحني وتفرحني، كنت أنتظر مكالمته بفارغ الصبر، وأنتظر اليوم الموعود بإنفعال شديد، وهو أيضاً كان ينتظر هذا اليوم بكل ما يملكه من طاقة، ويسألني عن كل أفراد العائلة فرداً فرداً، ويحملني بكلمات دافئة رقيقة، وكان دوماً يتفاءل بمستقبل زاهر، سوف ترين يا أمي، سوف أدافع عن نفسي، وأقاتل حتى أخرج من السجن، وأستقر بجانبك لتغفري لي، وأوجه كل اهتمامي لك. تلك هي أمانيه. كانت مكالمته تضاعف من قوتي، وتزيد من إصراري على مواجهة العدالة.

لكن كل شيء تغير منذ السنة الماضية، في شهر نوفمبر سنة 2003، قام القاضي بتجريده من حق الدفاع عن نفسه بمفرده، وكان لذلك الخبر وقع

الطامة عليه، حاولت أن أقول له إنه تجاوز الحدود، ولا يجب عليه استغلال وضعه لفرض آرائه السياسية على الآخرين. لكنه أصر على موقفه ولم يستمع لكلامي.

بالنسبة له الفرصة مواتية، لقد تجاوز حدوده، وسب القاضي ووكيله، وكأنه يظن أنه يحظى بحصانة تامة، وقد حصل ما كان متوقعاً، لقد جرده القاضي من حقه في الدفاع عن نفسه. بعدها انهارت معنوياته، وتحطم شيء بداخله، لقد فهم من هذا الإجراء أن العدالة الأمريكية تريد الإطاحة به بأي وسيلة، إنهم يعرفون أني ملم بما يحتويه ملف قضيتي الذي لا يحتوي على أي دليل ضدي، لهذا لا يريدون منحي حقي في الدفاع عن نفسي بنفسي، هذا ما كان يردده منذ مدة، وشيئاً فشيئاً انهار تماماً. أصبح حزنه عبارة عن طاقة سلبية ضاعفت من عنفه وتعنته.

منذ مدة لا تدور مكالماتنا إلا عن الإسلام وحقده على الغرب، عندما جرده القاضي من حقه في الدفاع عن نفسه، جرده أيضاً من الأمل الذي كان يحدوه، وأيقظ التعصب الذي كان نائماً بداخله.

الهاتف يرن والضعف ينال مني الشيء الكثير، كيف سأجده هذه المرة، بدأ يتكلم بصوت باهت هادىء، وشيئاً فشيئاً أصبحت المكالمة موعظة، وكان يذكرني أن المسلمين فقط هم الذين يذهبون إلى الجنة، والآخرون يذهبون إلى النار، فهو لا يعرف أين أنا الآن. إني أعيش في الجحيم.

قلت له:

- أتعرفُ أني أواجه مصاعب كبرى؟ قال:

- أعرف يا أمي، أعرف.

قال ذلك بكل هدوء

- لا، لا تعرف، ولا يمكن أن تعرف، أنت لم تنجب أولاداً حتى تعرف.

- أنا أتصور ذلك وأضع نفسي مكانك.

- لا، لا يمكن ذلك.

كنت أود أن أصرخ في وجهه وأصارحه برأيي الحقيقي، ماذا فعلت بي؟ لم تفكر في لحظة واحدة، تقول لي: سوف تنقذ الإسلام، إن الإسلام ليس بحاجة لك كي تنقذه أما أنا فبحاجة إليك. هل فكرت مرة واحدة أن لك أمّاً؟ عندما أرى كل الأمهات مع أطفالهن، وعندما أتذكّر أني عملت طوال حياتي من أجلكم، واليوم أجد نفسي وحيدة أتكلّمُ في الهاتف مع أحد أبنائي الموجود في السجن، كيف يمكنك إنقاذ الإسلام، وأنت غير قادر على إنقاذ نفسك؟

لم أستطع مصارحته بكل ما يجول بداخلي، لذا أخذت المكالمة منعطفاً آخر، واتجهت إلى جميلة. قال لي: لدي مشروع لمساعدتها عندما أخرج من هنا، سأجد لها عريساً بين الإخوان لإسعادها بقية حياتها، سوف يمضي معها عقداً مدة خمس سنوات حتى تتمكن من معرفة الإسلام، وتصبح زوجة مسلمة صالحة. تركته يسترسل في هرائه، قال لي أيضاً: إنّه أثناء هذه السنوات الخمس لا يجب أن ترَيْها، وتكوني بجانبها عند الضرورة فقط لمساعدتها. فضلت أن لا أجيبه على كل هذه المقترحات المستقبلية، فهو مقتنع أنه الوحيد الذي يعرف الحقيقة، وأنه الوحيد القادر على اتخاذ القرار، لأنه الرجل بالطبع.

بعد ذلك بدأ يصف لي المرأة التي يجب على المسلم أن يختارها ويتزوجها. تنكح المرأة لأربع، لجمالها، ومالها، ونسبها، ولدينها وأخيراً لحبها، لم أصدق ما سمعت، لاعلاقة للقرآن بكل هذا، هذا من تأليف عقيدته وتعصبه.

أصبحت المحادثة مونولوج مخاطبة بينه وبين نفسه، بعد كل هذا قال لي:

- أطلب منك العفو يا أمي، العفو عن كل شيء ويسترسل ويقول: إني أحبك بارك الله فيك، سوف أصلي وأدعو لكل من يريد دخول الجنة.

قلت له: في هذه اللحظة،

- أنت الذي تحتاج إلى من يصلي عليك.

أتذكر عندما زارني سنة 1997، أنه أراد أن يقبل رجلي لأغفر له، وأتصور أن كل ما كان يطلبه مني هو الغفران لكي يرضى شيوخه، هم دون شك طلبوا منه ذلك وقالوا له: لا يمكنك الاستمرار معنا إلا إذا رضيت عنك أمك، لهذا منذ ذلك الوقت لم يتوقف عن طلب الغفران، وأصبح يطالب بذلك تلقائياً، حتى أصبح إلحاحه دون أي طعم.

في المدة الأخيرة طلب مني مصالحة أخيه عبد الصمد، كما طلب مني مصالحة أبيه أيضاً ليطلب منه العفو أيضاً.

بعد انتهاء أثر المفاجأة قبلت طلبه، كل ذلك تطلب وقتاً طويلاً، لكني بحثت عن والده ووجدته بإحدى دور المبيت بباريس، لم أصارح يوماً زكريا أن أباه فضل الهروب على المناقشة والمصالحة.

يبدو في المدة الأخيرة أن زكريا يتلذذ في النيل من أحاسيس ومشاعر كل من لا يوافقه الرأي ولا ينتمي إلى جماعته، بمعنى آخر «كل كفار العالم حسب زعمه»، أريد حثه على التعقل لكن طاقة وقوة زمان تخلت عني.

إنّه يلومني أنا أيضاً على عدم ممارسة شعائري واستمراري في ارتكاب المعاصي، وعمل أي شيء. ويكلمني عن الله، عن أي إله يحدثني؟ الإله الذي أرشده على الطريق الذي يسلكه؟

الله لم يحرض أبداً مخلوقاته على العنف والدمار. إني أطلبه بانتظام، لأطمئن على صحته لا لسماع صب جل حقده على الآخرين.

حقده وكرهه للآخرين يخيفني ويوجعني، في كل شهر يزداد عنفاً وتطرفاً، إنه الهروب إلى الأمام، الهروب إلى العنف، عندما أضع حداً للمكالمة أشعر بالاشمئزاز والغثيان مما سمعت.

في يناير 2005 موعد جديد مع زكريا عبر الهاتف، تصرفه ينخر قلبي أكثر فأكثر، لم أذق طعم النوم طوال الليل، وكنت أتصور أن مكالماته ستسعدني تارة وتحزنني تارة أخرى، لكن ما حصل ويحصل هو العكس، أتصور كل معاناتي عندما أواجه زكريا الجديد، زكريا الذي لا أعرفه بعد دروسه الدينية المعتادة عن تصوره للإسلام، وهو يلومني ويلوم أباه على قدومنا إلى فرنسة.

- أتعرفين يا أمي إني أتأسّف لأني فرنسي. لقد تجاوز حدوده، قررت أن أصارحه في هذا الموضوع، وعدم الإصغاء إلى حماقته، وتركها دون رد.

- تقول هذا لأنك كبرت، أنت لا تعرف ما يجري ببلدنا، الناس يعيشون في الفقر والبؤس، ويومياً يموت كثيرٌ من الشباب لمحاولتهم العبور إلى ما وراء البحار.

- إنهم أغبياء فما عليهم إلا البقاء في بلدهم. قال ذلك بشيء من الاحتقار، مالت المكالمة إلى العنف، فقال لي: إنّ قيمنا تختلف، وأنا أحب فرنسة ولست مسلمة صالحة. حقده زاد من معاناتي وأرهقني، قلت له:

- من أنت حتى تقوّمني؟

- أنا مسلمة صالحة بما في داخل قلبي.

- لم أقم بإيذاء أحد طوال حياتي.

- أما أنت فماذا فعلت طوال حياتك؟

- ماذا فعلت تجاه أمك؟

- تجاه إخوانك؟

- بدأت دراسات عليا، لكن سرعان ما تخليت عنها.

- الإسلام في قلبي.

- الإسلام يحث على طاعة الوالدين والأهل منذ الصغر.

- أنت وجهت لنا العديد من الضربات، وفي عشية وضحاها أصبحت تدّعي الإسلام، وتريد أسلمة العالم كله.

- أنت لا ولن تفهم أبداً.

بعد هذا الإسهاب استغربت وخجلت من كل ما قلته، فهي أول مرة أتجرأ على مصارحته بما في داخلي.

أجابني إنه يفضل الكلام في القرآن الكريم، لكني أعرف القرآن الذي يدعو إلى حب الله لا قرآن السياسة.

إني لا أريد أن يفرض علي ما يجب فعله، ولم يفهم بعد أنه لن يخرج أبداً من السجن، إذا استمر على هذا الحال إنه يخيفني، يخيفني على نفسه.

يجب أن أغير من تفكيري تجاهه، وأفكر بجد وعدم الخوف من معرفته على حقيقته. في كثير من الأحيان لا أتوقف عن ترديد ما لا يتوقف عن الحديث عنه، في هذه الأثناء أصابني مغص داخل أحشائي، يجب أن لا أخاف على صحته؛ لأنه بالرغم من وجوده تحت رحمة الذئاب لا ينفك عن الإصرار أنه سوف ينتحر في النهاية، فهو يتباهى ويدعي أنه عند خروجه من السجن سوف يتزوج أربعة زوجات. إنه يستغرب أني لا أصدق أنه سيصبح شهيداً يوماً ما، إنه ليس شهيد الإسلام بل شهيد غلطته وتعصبه وتحدياته، وأنا لا أوافقه الرأي لأني أرفض الحقد والعنف، أنا لا أكره الآخرين لأن ديانتهم تختلف عن ديني، أو لاختلافهم معي في لون البشرة، أو في حبهم الله، فالكل سواسية. أنا أريد أن أكون متوافقة مع ما أشعر به، وأخفف من مجهوداتي لكي لا أكون ضحية لهذه المعركة معركة ابني.

في 12 أبريل 2005، في الصباح الباكر أعددت نفسي لاستقبال مكالمة زكريا، أنا أعرف أن الطريق مسدود بالمكالمة أو دونها، وإنه سوف يقول لي كالعادة إنه يريد التضحية من أجل الآخرين، ثم يتكلم عن الشهادة في سبيل الإسلام.

لقد حذرني المحامون أنه يستعد لتغيير أقواله من جديد، لقد قرر أخيراً أن يقر بأنه مذنب. عندما يكلمك بالهاتف حاولي أن تثنيه عن هذا الاتجاه، وإلا سوف لا نستطيع مساعدته. إذا أصر على أنه مذنب سوف يكون مصيره، إما الإعدام أو المؤبد.

أصبحت رجلاي غير قادرتين على الثبات، وعند جلوسي فوق الأريكة انهارت قواي، كل ما فعلته لم ينفع لأمد يدي تجاهه لا زياراتي له ولا مكالماتي للتواصل، كل هذا لم يرجعه إلى صوابه، ولم يوقد شعلة من الإنسانية في داخله، كنت بأمس الحاجة إليهما.

الهاتف يرن، إنه هو دون شك، بدأ يذكرني بأحوال الطقس المتقلبة من جميل إلى أجمل، ومن سيئ إلى أسوأ، قلت له:

- توقف إني لا أريد الحديث في هذا الموضوع.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- هل صحيح أنك تعتزم الإقرار بأنك مذنب؟

- هذا لا يهمك، قومي بدورك كونك أماً فقط.

- لكن هذا انتحار؟

- إنهم يريدون رأسي سوف أقدمه لهم على طبق من فضة، وسوف يعرفون أنني لا أهاب الموت.

- ولكن ماذا تظن؟

- هل تظن أننا سنضع سبعين شمعة على لحدك. لم يكن هناك داعٍ.

- أريد التكلم معك في هذا الموضوع.

فهمت أنه يريد تنفيذ رغبة أمريكية، هم يبحثون عن كبش فداء لأحداث 11 سبتمبر، ها هو يتطوع لهذه المهمة. الضحية أمامهم ما عليهم إلا الانحاء لالتقاطها، والإسلاميون استغلوه ليكون الضحية بطريقة أو بأخرى، وهو تحت تأثير حقده ينفذ ما يريده هذا وذاك.

قلت له:

- باسم من تريد التضحية، فالإسلام لم ولن يطلب منك ذلك؟

- لكننا في حالة حرب مع الغرب ألا تشاهدين معاناة المسلمين في العالم كله في العراق وفلسطين والشيشان؟

- لا، لا أنت وحدك في حالة حرب. كان ملفك خال من التهم وأردت الآن أن تملأه.

- قل لي كيف تساعد هؤلاء المسلمين وأنت في السجن؟

- أنا لا أريد محاكمة عادلة، أريد أن أموت شهيداً.

انهارت قواي وأصبحت لا أتحمل، لا التكلم معه ولا سماعه، لا فائدة من الكلام إنه ليس ولدي الذي أعرفه، أصبحنا غير قادرين على التفاهم.

قلت له:

- اسمعني جيداً، إذا كنت غير قادر على التلفظ إلا بهذا فما عليك إلا أن تكف عن الكلام.

- سوف نتكلم لما تكف عن قول أي شيء من هذا القبيل.

أنا خائفة أن يتلفظ في الهاتف بأشياء تحسب عليه، وتؤثر على قضيته سلبياً، لا أريد أن أكون طرفاً في المكيدة التي يحيكها بنفسه، وكم ألومه على الأحاسيس التي ولدَت بداخلي تجاهه، وكم كنت أريد أن يطلب مني مساعدته، ويطلب مني العفو عنه، ويشعر بالجهود التي تبذلها من تحبه من أجل إنقاذه من الموت؟ بدلاً من هذا فهو يبصق على العالم أجمع ولا يحترم أي إنسان بما فيه أمه.

إنه ولدي، وسيظل جزءاً من لحمي، وإذا أردت متابعة معركتي للدفاع عنه يجب أن أضع حداً لهذه المكالمة التي فرقت بيني وبينه، وأجعله يكفّ عن توسيع الفجوة بيننا.

(27)

زكريا يقر أنه مذنب

تحطم حلمي

في 22 أبريل 2005 عند الساعة التاسعة مساء، بينما كنت في بيتي بناربون إذا بجلسة محاكمة زكريا تنتهي لتوها بواشنطن. لقد أقر بأنه مذنب، لقد أعلن زكريا رسمياً أنه مذنب ومتورط في الاشتراك في أحداث 11 سبتمبر، لقد قضى عليَّ. حتى آخر دقيقة كنت آمل أن يغير رأيه، ويتراجع عن أقواله ويرجع إلى صوابه. مهما كان، فقد سبق وأن فعل الشيء نفسه، إنه وحده وبمحض إرادته اعترف بأنه مذنب دون أن يطلب منه أحد ذلك، لقد كتب رسالة إلى وكيل الجمهورية، يطلب فيها تغيير أقواله، ويعترف بأنه مذنب، وأن كل الاتهامات الموجهة إليه صحيحة دون أي استثناء، بناء على هذا سوف يواجه أربعة تهم تقوده للإعدام.

هذا غير معقول وغير منطقي، في 11 سبتمبر كان موجوداً بالسجن، ولم يفعل أي شيء، المحامون لا يكفون عن ترديد ذلك، ليس هناك أي شيء في ملف ابنكم، كل ما يمكن اتهامه به هو انتماؤه لتنظيم القاعدة لا غير، لكن ليس هناك أي دليل يثبت أنه كان على علاقة بالانتحاريين، وليس لهم الحق في الحكم عليه بالإعدام، لقد كنت مقتنعة بما يقولون، وظننت أنهم سيحاكموه محاكمة عادلة. في مخيلتي كنت أتصور أنه سيقضي مدة في السجن بسبب انتمائه إلى القاعدة، ثم يطلق صراحه، هذا طبيعي لقد

أخطأ ويجب أن يعاقب، ولكني كنت أظن أنه سيرجع يوماً ما إلى البيت بعد قضاء عشرة أو خمسة عشرة سنة في السجن، كما كنت أتصور أنه سيتغير ويزول الحقد الذي يسكن بداخله، وأساعده على أن يبدأ حياة جديدة مع ذويه، كل هذا كان في الأحلام فقط. من أجله فقط كنت أكافح منذ أربع سنوات، وجاء زكريا ليمحو كل شيء، ويدمر من جديد كل ما بنيته، إنه يعرف جيداً أنه باعترافه هذا لن يستطيع إثبات الحقيقة أبداً. هناك خياران لا ثالث لهما أمام العدالة الأمريكية، إما الإعدام أو السجن المؤبد. بالنسبة لي أيضاً هذا هو ما يستحق، لن أراه بعد اليوم، أما هو فلا يكترث بذلك؛ لأنه يريد أن يموت وحتى يتمكن من تحقيق أمنيته، وعد وكيل الجمهورية بمفاجأة، بما أنه يعرف أن ملفه لا يحتوي على أي شيء، أعرب له أنه لا علاقة له بأحداث 11 سبتمبر، ولكنه مكلف بتنفيذ عمليات إرهابية أخرى في البيت الأبيض مستقبلاً، بهذه التهم أصبح متأكداً أنه سيموت شهيداً، إنه يعرف أيضاً أن المحامين لا يستطيعون إثبات العكس.

لقد دوّن في رسالته بعض التفاصيل، من بينها أن ابن لادن اختاره لهذه المهمة؛ لأنه يعرف أنه حلم من أحلامه، وقد قال له ابن لادن أيها الصحراوي لا تنس حلمك، وأضاف زكريا في رسالته أنّه يحضّر لتهريب الشيخ عمر عبد الرحمن من السجن، والشيخ عمر عبد الرحمن هو مصري موقوف منذ اثنتي عشرة سنة، لأنه كان يعد لإجراء تفجيرات في نيويورك.

الأمريكان محظوظون، لأن زكريا قدم لهم هدية على طبق من فضة، وحكم على نفسه بنفسه. ماذا يقصد من هذه اللعبة؟ هل يتصور أنه سيوقع أمريكة في فخه الخاص؟ وبعد الحكم عليه بالإعدام يستطيع إثبات براءته، وإهانة الحكومة الأمريكية، هذا حلم، إنّه لا يكف عن الصراخ،

بإنه يريد أن يموت شهيداً، وسوف تتحقق أمنيته ويموت شهيداً، مثل ما أراد. بعد ذلك لا يستطيع أحد رد الاعتبار له، حتى أصدقاؤه الإسلاميون لن يستطيعوا ذلك، مع العلم أنهم نسوه بعد إلقاء القبض عليه وسجنه.

لقد دمر كل شيء حولي، أنا ما زلت متأكدة أن ابني لم يشارك في أحداث 11 سبتمبر، لكني تأكدت أنه أحد أعضاء تنظيم القاعدة، حسبي الله ونعم الوكيل في كل من أدخل في رأسه هذه الأفكار الإجرامية، وحوّله إلى رجل متعصب، وأول هؤلاء هو ابن لادن، الذي قال عنه زكريا: إنه والده. من هو الأب الذي يبعث بولده إلى الإعدام؟ تأكدت هذه اللحظة أن طفولته المتذبذبة هي التي تركت بداخله كثيراً من الجروح، مثل أخيه وأخواته، لقد عرفوا العنف وهم ينمون داخل بطني، فهو لم ينعم بالحب لا قبل الولادة ولا بعدها.

لقد قال له أبوه ذلك مرة، من يدري كم كان تأثير ذلك عليه؟ مع أني كنت أحبه مثله مثل أخيه وأخواته، وغمرتهم بحبي وحناني وعطفي، ولربما كان لا يحتاج إلى الحب؛ بل يحتاج إلى عائلة مترابطة متماسكة، إلى أب يحبه ويهتم به، فحبّ الأم وحده كان غير كاف، لقد كان شاهداً على عنف أبيه مع أمه، وكان يتنقل من مبيت إلى آخر إضافة إلى حنينه إلى أصله المغربي مع أنه فرنسي الولادة، كل هذا جعله يبحث عن قوة يتشبث بها وسلطة تحدد مكانه بين أفراد المجتمع. للأسف كان من سوء حظنا أن تكون هذه القدرة وهذه السلطة في أيدي المتطرفين المتعصبين، لقد أصبح أعمى لا يبصر، فارتمى في أحضانهم بهذه السهولة، إذا كان اليوم يحاول إغراق نفسه بالاعتراف بأدلة غير منسوبة له، فهو لا يريد من ذلك إلا التباهي وإظهار ولائه إلى والده ابن لادن، أعرف أن زكريا سطر

طريقه منذ مدة طويلة، وأنا بريئة من كل ما يحصل له، لكني ألوم نفسي لأنني لم أستطع حمايته، ولم أستطع تلقينه قيم الحرية كما ينبغي، كما لم أستطع أن أعلمه احترام الآخرين والتسامح مع كل الناس، تلك هي القيم التي كافحت من أجلها طوال حياتي.

مجرد الفكرة التي تبناها اليوم وهي أنه كان يتمنى إجراء تفجيرات أو التضامن مع من ينفذها، تؤلمني وتعذبني. مع كل ذلك ما زلت أحبه ولا ولن أتوقف عن ذلك، كل الأمهات تتفهمن ذلك، كلما غرق أكثر احتاج إلى مساعدتي.

لكن هذه المرة اختلف الأمر، منذ البداية كنت أعرف أنه لا علاقة له بأحداث 11 سبتمبر، قال لي ذلك وكرره، ولكن فجأة تراجع ووجه لنفسه كل الاتهامات، إنها خيانة ومؤامرة لأني أعرف أنه يكذب ولا علاقة له بكل ما حصل، فهو بريء لكنه بتبنيه كل الاتهامات المؤلفة من خياله سوف يقضي على كل الأمل الذي أتسلّح به منذ أربع سنوات لأكشف الحقيقة، وإخرجه من هذه الورطة.

لماذا يتصرف هكذا؟ إني أقلب هذا السؤال ألف مرة في اليوم، بدأ هذا التصرف منذ أن سحب منه القاضي حقه في الدفاع عن نفسه، لقد عمل كثيراً من أجل إثبات براءته، وأعد ملفاً متكاملاً لدعم أقواله، وفجأة بدأ يتراجع، ويظن أن كل شيء مسموح له، وبدأ يشتم كل شاهد في قضيته، ويسب القاضي ونائبه، فنزلت عليه الطامة الكبرى. لقد كلف القاضي المحامين الذين رفضهم بالدفاع عنه، وتحطم كل شيء بداخله ربما أقر أنه مذنب ليفهمهم أنه هو سيد الموقف، وهو الوحيد الذي يستطيع تقرير مصيره.

تذكرت أحد الأفلام الإنجليزية الذي شاهدته بالتلفاز عنوانه زنزانة هامبورغ، هو فيلم خاص بالإرهابيين الذين نفذوا تفجيرات 11 سبتمبر، وزكريا تم تقديمه عضواً في تنظيم القاعدة غير موثوق به كثيراً من رؤسائه، لذا تم إبعاده من المجموعة التي نفذت تفجيرات 11 سبتمبر، وتم ذلك قبل عملية التفجير، لقد قال لي أثناء إحدى محادثاتنا إنه يعرف الفيلم، عند مشاهدة ذلك الفيلم لم أنتبه، واليوم أنا خائفة أن زكريا يوجه الاتهام لنفسه عن كبرياء، وكان يريد أن يقول هل ترون أني لست مثل ما كنتم تتوقعون.

إني ألوم الولايات المتحدة لأنها تصدق افتراءات ولدي، وهذا يدل على أنهم لا يريدون معرفة الحقيقة، ولكنهم يريدون مذنباً فقط حتى وإن كان زكريا كبش فداء.

(28)

الخيانة

في يوليو 2005 ومنذ ثلاثة أشهر أقر زكريا أنه مذنب، منذ ذلك الحين لا أعرف عنه شيئاً، وأتصور أنه ما زال يتخبط في منطق الإرهابيين داخل زنزانته، إني محبطة ومنهارة. لأول مرة فكرت في التخلي عن هذه القضية، لماذا أستمر في إدارة معركة خاسرة؟

المحامون الأمريكيون لا يوافقونني الرأي، إنهم يؤمنون بإنقاذه من المشنقة، سوف يأتون إلى باريس لدارسة الملف مع المحامي الفرنسي روكس، والاستعداد للدفاع عنه، السيد روكس أصبح وكيلاً معتمداً لهم في فرنسة، ويشاركهم في عملهم، وهناك محام جديد من منظمة حقوق الإنسان. واسمه السيد «بودوان».

قلت له:

- كان من الأفضل مواجهة القضية من قبل أما الآن لقد فات الأوان.

- مهما حصل سوف يقضي بقية حياته في السجن، وتدخل المحامي جيرالد زركين رئيس الوفد الأمريكي وقال:

- لا يجب أن نستسلم.

بالنسبة لهم لقد بدأ العد التنازلي، والجلسة القادمة ستكون في بداية 2006 وتبقى لهم سنة كاملة لإيجاد الظروف الخاصة التي قد تخفف من الحكم على زكريا، لم أفهم فوراً ما يدور بداخل رؤوسهم.

إنهم يريدون معرفة كل شيء عن حياتي وحياة زكريا، ويريدون أيضاً مقابلة كل أفراد العائلة وأصدقائي وأصدقاء أولادي الذين كانوا يدرسون معه. إنه عمل جبار.

قال لي السيد روكس: عائشة إذا أردت إنقاذ ابنك، فلا بد من مساعدتنا، وطبعاً هم بحاجة لي إنهم لا يعرفون شيئاً عن زكريا، لقد رفض استقبالهم والتعامل معهم منذ البداية، ولم يتكلم معهم أبداً. في هذه الظروف كيف يمكنهم مساعدته والدفاع عنه، فهم لا يعرفونه.

هل يجب مساعدتهم أم لا؟ إنه خيار صعب، إلى الآن لم يخبرني المحامون الأمريكيون بشيء يذكر، ما عدا الإجراءات التي اتخذوها بخصوص الدفاع عن ولدي، ولم يتم التنسيق بيننا أبداً، لكن هذه المرة طلبوا أن أكون عضواً فاعلاً وفعالاً في فريقهم، وزكريا سوف لا يغفر لي تنسيقي هذا، إنه يكرههم. لقد كان يقول لي: أمي إذا كنت تحبينني فعلاً وتريدين فعل شيء من أجلي لا تتعاملي مع هؤلاء المحامين ولا تكلميهم، قال لي ذلك عدة مرات، وأضاف أنهم لم يراعوا أي طلب من طلباتي، لأنهم يتقاضون أتعابهم من الحكومة الأمريكية. زكريا متأكد أنهم منذ البداية لا يريدون الدفاع عنه؛ بل إغراقه. لو يعرف أني أتعامل معهم أنا متأكدة أنه سيعدّني خائنة.

ولكن ما العمل؟ هؤلاء المحامون هم الأمل الأخير المتبقي لإنقاذ ابني من الإعدام، والمحامي روكس يظن أنه قرأ كل هذه التساؤلات التي تدور بخاطري قال لي:

- لا تقلقي يا عائشة، امنحينا ثقتك وسوف تسير الأمور على ما يرام.

- إذا ساعدتكم هل تضمنون لي مقعداً بجانبكم أثناء الجلسة؟

سوف يكون لك ذلك، وسوف نرتب كل شيء، وسوف يشكرك ابنك عندما ننقذه. قلت لهم:

- موافقة على كل طلباتكم. إنهم على حق وسوف أساعدهم، مرة أخرى قبلت عرضهم عن قناعة، أخذنا نتنقل من منطقة إلى أخرى بحثاً عن ماضينا مروراً بمولوز وبيريجو، إنهم يريدون كل شيء يخص حياتنا، والطرق التي سلكناها، ويريدون مقابلة كل من يقول كلمة طيبة عن زكريا لمساعدته، ليصبح إنساناً طيباً كما كان. أحياناً أتصور أني أبحث عن إبرة داخل كومة من التبن، لأنه يجب مقابلة أشخاص لم أقابلهم منذ خمس عشرة سنة، وآخرين منذ ثلاثين سنة تقريباً.

بالرغم من كل هذه السنين، كان لنا ما نريد، وجدنا جيراناً قدامى وأصدقاءه ورفاقه في المدرسة وحتى صديقته السابقة.

سنة 2005 كانت جولتنا على وشك الانتهاء، لقد قابلنا العشرات من الأفراد، والكل وعدنا بالمساعدة. كم كنت ممنونة لأن كل هؤلاء الناس لا يزالون يذكروننا، وبعد كل هذه المدة وافقوا على مساعدتنا والوقوف معنا.

يفعلون ذلك باسم الصداقة التي ربطتنا وتقاسمنا حلوها ومرها، كان من المفروض أن أكون سعيدة، لكن لا أشعر بالسعادة لأني أشعر أن المحامين أخفوا عني شيئاً ما، لقد لاحظت أثناء حملة التفتيش التي قمنا بها، كان المحامون يسألون الناس كثيراً عني شخصياً، وكأن المتهم ليس ولدي بل أنا المتهمة.

وأخيراً أخبروني بالإستراتيجية الجديدة التي سيتبعونها، أنهم يريدون إثبات أن زكريا ليس مسؤولاً عن أفعاله، وأن حالته هي حالة سيكلوجية. ليس هذا فقط يريدون إثبات أن عذابه أثناء الطفولة هو سبب فصامه، قالوا لي إنه يجب أن أقابل رجال الإعلام، وأخبرهم أنني قصرت في حق أولادي أثناء الطفولة، ولم أهتم بتربيتهم. كيف يطلب مني السيد روكس أن أردد مثل هذه الافتراءات أمام الميديا؟

إنها خيانة، هذا هو مخططهم العبقري، يريدون مني أن أقر بأنني لست أمّاً صالحة أمام العالم كله، وأن أقول إني أهملت أولادي وتركتهم يتصرفون كما يشاؤون، وخيانة زكريا واتهامه بالجنون. نعم زكريا ليس طبيعياً منذ مدة خاصة وأنه موقوف في السجن في ظروف صعبة للغاية، لكنه ليس مجنوناً ولم يكن مجنوناً في يوم ما، أنا الغبية التي كانت تظن أنهم يريدون إثبات أن ابني بريء من أحداث 11 سبتمبر، لقد اعترف أنه مذنب لأن السجن في ظروف قاسية عزله عن الواقع وأجبره على الإقرار بما لا ذنب له فيه، فليراجعوا ملف القضية ويثبتوا الحقيقة، بدلاً من هذا استسلموا للأمر الواقع، وراحوا يبحثون عن وسائل أخرى تعتمد على الحيلة والتحايل.

على كل حال منذ أن أقر أنه مذنب انتهت اللعبة وأصبح الإعدام أو المؤبد في انتظاره، وهذا لا يغير شيئاً لأني لا أستطيع رؤيته أبداً، كما لا أستطيع مداعبة يده. لم يبق لنا سوى الحقيقة والكرامة، وهذا ما لا يستطيع المحامون سلبه مني، قلت للمحامين إنكم تطلبون مني أن أكذب وأن أقول أمام العالم أن زكريا ليس له أب وأم، وأصبح إرهابياً لأني لم أحسن تربيته، وأن كل أفراد العائلة مجانين. هذا ما يريدونه. قال لي أحدهم: يا عائشة نحن نريد فقط إنقاذه من الإعدام، لهذا يجب أن أكذب.

منذ أربع سنوات وأنا أكافح بكل ما لدي من قوة، وأقوم بهد الجبال لإنقاذ ولدي حتى جاءت الضربة القاضية من المحامين الذين نشرت أمامهم كل حياتي، إنها فعلاً الضربة القاضية إني أشعر بالإهانة. لقد أهانوني، وأخافوني بإستراتيجيتهم الجديدة، فهي إهانة لكل الأمهات.

وعلى الرغم من هذا لم تنتهِ المفاجآت. بعد أيام جاء السيد روكس إلى بيتي بدعوى أن عنده شيئاً مهماً يريد تبليغه لي، لكن ثقتي بهم أصبحت معدومة، ولا أنتظر أي شيء منهم، لأني أصبحت بعيدة عن الحقيقة. أخبرني أنهم قرروا ألّا أحضر الجلسة مثل ما وعدوني، لقد أنفقوا كل المال الذي منحتهم الدولة. ثم قال لي يمكنك الحضور خمسة أيام فقط بشرط أن لا تقابلي الميديا، ولا الإدلاء بأي شيء. ولماذا كل هذا؟ لأن القاضي سوف يدعي أنك تنفقين أموال الدولة من أجل قضيتك، وهذا سوف يكون له تأثير سلبي على القضية، لهذا يجب الحذر، وبعبارة أخرى يريدون إسكاتي لكي لا أفضح إستراتيجيتهم، إني لا أصدقه، ماذا؟ هل يتصورون أني غبية إلى هذه الدرجة؟ فليحتفظوا بأموالهم. سوف أجد وسيلة للذهاب وحدي إلى هناك. سوف أقترض من البنك إذا دعت الحاجة، لكن

لا يستطيع أحد منعي من قول الحقيقة، لا هم ولا القاضي، لقد انتهى كل شيء يربطني بالمحامين، ولا أريد ذكرهم. شعرت بالوحدة من جديد، لقد وعدني محامي منظمة حقوق الإنسان بإيجاد وسيلة تمكنني من الحضور أثناء محاكمة ولدي.

بعد عدة أسابيع جاءتني مكالمة من أمريكة. لقد رفض القاضي طلب المحامين بأن زكريا يعاني من مرض نفسي؛ لأن المتهم أظهر أثناء الجلسات السابقة أنه يتمتع بعقل سليم، كما يتمتع بكل إمكانياته وقدراته. مهما حصل إذا أرادوا إثبات أن ولدي مصاب بانفصام، فليثبتوا ذلك من طرف ذوي الاختصاص، مع العلم فإن ولدي كان يرفض دوماً مقابلة أي طبيب نفسيّ، أظن أن ولدي كان يعرف أنهم سيحاولون الادعاء أنه مجنون. هذا الرفض كان بمنزلة انتصار لي، حتى قلبي غير قادر على الاحتفال بهذه المناسبة، وبعد أيام سوف أسافر إلى واشنطن لحضور المحاكمة، مع أني أعرف سلفاً أن الإعدام في انتظار ولدي بعد انتهاء هذه المهزلة.

في 26 يناير 2006 طلبتني على الهاتف ابنتي نادية، قليلاً ما تناديني إحدى بناتي في هذه الظروف الصعبة. تكلمنا عن كل شيء، وأي شيء لكن زكريا كان حاضراً أثناء المكالمة، ولم يتركنا نفكر في شيء آخر، إنها تشعر أني حاضرة غائبة ومنهارة. قالت لي:

- أما زلت تتعاملين مع المحامين لمساعدة زكريا؟

- لا أعرف على أي رِجْل أرقص.

- مهما كان لا نخسر أي شيء، ونحن نقوم بما نستطيع لأن كل شيء معقد مع زكريا.

- هل ستسافرين إلى أمريكة؟

- نعم سوف أسافر إلى هناك أسبوعاً.

- إنها ليست نزهة سهلة أو سفر استجمام.

- أتمنى أن تجدي قليلاً من الراحة.

- أدعو الله أن يساعدك يا أمي.

- كنت أود ألاّ أسافر لأن أخاك دمرني كما دمر كل أفراد العائلة.

- لا تقولي هذا يا أمي إن ما تقولينه غير صحيح، لماذا؟

- نحن لا نزال على قيد الحياة، أما هو فقد دمر حياته ومستقبله. كلمات بسيطة لكنها ثقيلة في الميزان، لقد أثلجت صدري وأعادت الحياة لقلبي، وزودتني بالقوة اللازمة لمواجهة الامتحان الصعب الذي ينتظرني.

(29)

زكريا يحفر قبره

كان 6 فبراير 2006 هو أول يوم للمحاكمة أو بالأحرى أول يوم من آخر مرحلة للمحاكمة. في هذا اليوم سيتم اختيار القضاة فقط، دون إجراء أي مرافعة. لذا أشعرني المحامون بعدم السفر إلى أمريكة.

لكني أعرف ابني، وأعرف أنه لا يكف عن التحدي، وأظن أنه سيغتنم هذا الفراغ لعرض عضلاته، وسكب الزيت على النار كما يقولون. قضيت اليوم في التنقل من قناة لأخرى ومن المذياع إلى التلفاز.

للأسف لقد حدث ما توقعت، لقد أخبرني الصحافيون الحاضرون في الجلسة الأولى أن زكريا استمر في تشويه صورته، ولقد طلب أن يتكلم في بداية الجلسة. أريد أن تسمعوني، هؤلاء المحامون لا يمثلونني، وعندما أشعرته القاضية أن دوره لم يحن بعد. انزعج وصرخ من جديد، إنه لا يريد التعامل مع هؤلاء المحامين المعينين من طرف الدولة، وإن هذه المحاكمة هي عبارة عن سيرك، وأنهى كلامه قائلاً ومتحدياً أنا القاعدة.

في هذه الأثناء طلبت القاضية من الحراس إخراجه من المحكمة. في دقيقتين فقط استطاع أن يستفز القاضية ليجبرها على طلب إخراجه من المحكمة.

بعد بضعة أيام تم السماح لزكريا بالعودة إلى المحكمة. علمت من الجرائد أنه عاد لعادته وبدأ يستعرض لعبته قائلاً: أنا لست فرنسياً وسوف لا أكون فرنسيّاً أبداً، وأنا هنا مسلم فقط. ثم أضاف أنا لا أريد أن أمثل أمام حفنة من الصليبيين الشواذ. كيف يمكنه أن ينسى أنه طيلة عشرين سنة كان يتباهى أنه فرنسي؟ واليوم لم يبق في رأسه إلا الحقد. لم يسلم من شره أحد فهو ينعت المحامين باليهود، وبالعملاء كما يصفهم بالكلاب، والراقصات اليابانيات، نظراً لأن واحداً من المحامين من أصول آسيوية. لقد خجلت من تصرفه هذا، وهذه الشتائم العنصرية والمعادية للسامية، أصابني الذهول وفقدت الأمل، الأمل كله. أنا مستعدة لهد الجبال من أجله، ومستعدة لكل التحديات وكل المعارك لأخرجه من هذا الجحيم، حتى وإن كان هو له رأي آخر ويبحث عن الموت، لكن لا يمكن أن أوافق عن شتائمه للآخرين؛ لأن ذلك يسبب لي إحراجاً ومضايقة لدرجة الاشمئزاز. كيف يمكن الدفاع عنه من هؤلاء الذين يصفونه بالمجنون وقليل الذكاء؟ كيف أحميه من الجرائد التي تصفه بالمضحك، بسبب مبالغته في شتم الآخرين؟ أما القاضية فقد انتبهت إلى لعبته. قالت القاضية في إحدى الجلسات: أنت عدو نفسك. قالت له ذلك قبل أن تطلب من حراسه إخراجه من المحكمة، عند خروجه وهو محاط بالحراس التفت إلى القاضية، وقال لها بسخرية: اهتمي جيداً بتحضير موتي. أنا خائفة من هذه المحاكمة. لست خائفة من الحكم؛ بل خائفة على زكريا بسبب تحدياته، لست خائفة من موته بل خائفة أن يفقد شرفه وشرف من يجرهم معه.

(30)

غريب في قفص الاتهام

وفي 4 مارس 2006 بعد يومين كانت المحاكمة ستبدأ، هذه المرة لست مضطربة مثل المرات السابقة عند وصولي إلى واشنطن. ربما لأني أشعر بداخلي أن القضية انتهت، والحكم صدر سابقاً إما الإعدام أو المؤبد، سوف لا يخرج من السجن. ليس هناك فرق. ما أريده هو أن يفهم زكريا أني هنا بجانبه، ولم أتخلَّ عنه. هبطت الطائرة عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً. المسؤول عن منظمة حقوق الإنسان والمسؤول عن الهيئة الفرنسية المناهضة للإعدام، اجتمعا من أجل مساعدتي في حضور الجلسات ورؤية ولدي عكس المحامين الأمريكيين. فهما لا يطلبان مني أي مقابل، إني لا أنس وقوفهما معي، وهذا جميل أعتز به، ولا يمكن أن أنساه أبداً. وخصوصاً أنهما لم يتخليا عني في الوقت الذي كنت بأمس الحاجة فيه للمساعدة.

عند مغادرة الطائرة نظرت يميناً وشمالاً للتأكد من عدم وجود آلات تصوير أو مكبرات صوت في انتظاري، ليس هناك خوف من الميديا. إني أعدّ نفسي مثل أم أتت لحضور جنازة ولدها، وليست مستعدة للإجابة عن أي سؤال. لحسن الحظ الصحافة لم تصل بعد.

كنت منشغلة البال عند عبور الجمارك. كل من سافر إلى أمريكة يعرف صرامة تعامل الجمارك الأمريكية، لسوء حظي لم أجد حقيبتي،

لقد ودعتها مع صديقة جاءت معي دليلاً ومترجمة، لقد مرت قبلي دون شك، وعبرت الجمارك، فوجدت نفسي وحدي، ولا أعرف كلمة واحدة بالإنجليزية، وسوف أواجه رجال الجمارك الذين لا يعرفون شيئاً عني.

قادني شرطي إلى صالة جانبية لمساءلتي، وكنت خائفة وأنا أتبع هذا الشرطي الضخم، كنت أتصور أشياء مثل: هذه أم موسوي تم توقيفها من قبل الشرطة الأمريكية. لست بحاجة إلى مثل هذه الفضائح، كنت أود المرور دون أن يعرفني أحد. كم ألوم نفسي على هفوتي هذه.

استطعت أخيراً أن أعرفّه على نفسي، وسبب وجودي في واشنطن، وفجأة أصبحوا هم في حرج أكثر مني، من جهة لا يريدون السماح لي بالمرور دون أمتعتي، ومن جهة أخرى أشعر أنهم يريدون التخلص من هذه الزائرة الثقيلة الوزن.

وأخيراً انتهت المشكلة بحضور مترجم، وبدوره اتصل بالسيد بردوان على جواله لكي يعيد حقيبتي للخضوع للتفتيش من قبل الجمارك، عند خروجي كانت الصحافة في انتظاري، أنا لا أومن بالعرافات، ومهما حاولت التهرب من الصحافة، أظن أن رحلتي بدأت بداية سيئة.

وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الزوال، ذهبت لمقابلة المحامين. كانت المقابلة باردة جداً، كانت المصافحة مثل الثلج، واختفت البسمات والمجاملات، هناك حقد في نظراتنا المتبادلة.

الصالة الجانبية الصغيرة تعجّ بالزوار والجو رهيب، حضرت لأقول للمحامين وأكرر أني أكرههم لسوء معاملتهم، لقد ساعدتهم وفتحت أبواب كل أصدقائي أمامهم، وسردت لهم قصة حياتي بالرغم من اعتراض

زكريا، فعلت كل هذا لأنهم وعدوني أن ذلك سيساعدهم في إثبات براءة زكريا، واليوم بعد أن بدأت المحاكمة عرفت أنهم استغلوني لصالحهم فقط، لتحسين صورتهم في المحكمة أمام وسائل الإعلام، قلت لهم دون لف ولا دوران.

- كيف ستدافعون عن ولدي؟ أجابني زركين.

- سوف نجد له مبررات للتخفيف من الحكم.

- سوف تقولون إنه عاش طفولة بائسة؟ أليس كذلك؟

- لا، قال ذلك وكأنه واثق من نفسه.

- لا تكذب علي، لدي الدليل القاطع. لقد قرأت الوثيقة التي تشيرون فيها إلى أن أم زكريا ليست أمّاً صالحة.

- قال والخجل يتسلل إلى وجهه.

- كيف؟

- أنا لا أنتظر شيئاً من هؤلاء المحامين، كل ما أنتظره منهم، أن يفوا بوعدهم، ويحجزوا لي مكاناً في قاعة المحاكمة لأكون قريبة من ابني، لأني أعرف سلفاً أنهم لم يحجزوا لي شيئاً.

قلت له بعد ذلك:

- أين سأجلس أثناء المحاكمة؟

اقترب مني جيرالد زركين، وأخبرني بشيء من الارتباك، أني لا أستطيع دخول قاعة المحاكمة وأضاف.

- نحن نأسف كثيراً، لأن الأماكن نفدت.

- ماذا سيكون وضعي إذاً؟

- ستجلسين في قاعة مجاورة وتشاهدين المحاكمة عبر شاشة العرض. غريب ما يحدث ومشكوك فيه؛ فأنا والدة المتهم التي قضت خمس سنوات من عمرها لكشف الحقيقة، لا أجد مكاناً في قاعة المحاكمة، والمتهم الرئيس هو ولدي؟ كيف يحصل ذلك بحضور وسائل إعلام العالم كله؟

ليس لي القوة ولا الرغبة في مقاومة هؤلاء الغادرين قلت بداخلي: طيب، لكن شعرت أنهم محرجون شيئاً ما. لا بد أنهم يخفون عنيٍّ شيئاً ما.

في هذه الأثناء تكلم محامي منظمة حقوق الإنسان السيد بودوان مخاطباً إياهم:

- يجب أن تصارحوا هذه السيدة بالحقيقة، لقد ساعدتكم وقدمت لكم كل ما طلبتم لذا يجب احترامها.

نظر المحامون الأمريكان إلى بعضهم والخجل يؤرقهم، وبعد قليل تكلم جيرالد زركين وشرح لي أن زكريا هو الذي لا يريد أن أحضر الجلسة، إنه خائف أن لا تتحملي أجواء المحاكمة مما يجبرك على البكاء والصراخ أثناء المحاكمة.

لكني أعتقد أنهم هم الذين يخافون انفعالي أثناء المحاكمة، فأفضحهم على كل أكاذيبهم وألاعيبهم أمام الجميع. كيف أصدقهم بعد أن تحطم كل شيء بيني وبينهم؟ مهما كان الأمر وعلى أي حال من الأحوال ليس لي

خيار آخر، ويجب أن أقبل الأمر الواقع، وأحضر المحاكمة عبر الشاشة مثلي مثل أي زائر.

لا يسمح لي أن أدلي بأي شهادة تخص القضية، والمحامون منعوني من ذلك؛ لأنهم خائفون من فضحهم، مع أني سوف لا أقول إلا الحقيقة، وهي إن زكريا ليس مجنوناً وهو كبش الفداء فقط. ليس له أي صلة بأحداث 11 سبتمبر، وأن المذنبين هم أولئك الذين عملوا له عملية غسيل دماغ لكي يستغلوه فقط، إني أعرف أن المحامين لن يقولوا كل هذا في أثناء الجلسة.

في آخر ليلة قبل بدء المحاكمة شعرت أنّ لا فائدة مني أمام المحكمة القضائية الأمريكية التي تريد طحن ابني.

كان 6 مارس 2006 اليوم الموعود، منذ سنين وأنا أنتظر هذا اليوم الذي يخيفني ويتوعدني، مع أني لا أشعر بأي ضغط كأن القضية لا تهمني، فهذه المحاكمة لا تشبه المحاكمة التي كنت رسمتها في ذاكرتي آلاف المرات، وكنت أتصور أنه سوف يحاكم على ما ارتكبه فقط، لهذا كنت أكافح لكشف الحقيقة فقط، ولبست معطفي واتجهت إلى سيارة الأجرة التي في انتظاري. ركبت السيارة وفي اعتقادي أني ذاهبة لمشاهدة مسرحية تم إعدادها قبلاً، لا خوف ولا قلق بداخلي، كنت متعبة فقط، مع شيء من الحزن والأسى، لأني لم أستطع تغيير مجرى الأحداث، ومحاربتي للولايات المتحدة التي لا تريد إلا رأس ولدي بحد ذاته، معركة صعبة، ولكن محاربة تحديات ولدي وإصراره على أنه مذنب معركة أصعب، تفوق كل طاقتي وتخيلي. في طريقنا إلى المحكمة كان المحامي يشرح لي كيف ستتم المحاكمة. في بداية الجلسة سوف يشرح القاضي أن زكريا مذنب، وأن

أحداث 11 سبتمبر كان بإمكاننا تفاديها، لو أخبرنا زكريا بيوم حدوثها، إذا كان هذا الاتهام غير صحيح، فيحكم على زكريا تلقائياً بالمؤبد، أما إذا تبين أنه مذنب سوف تعاد محاكمته لمعرفة إذا كان يستحق الإعدام أم لا.

كنت أنصت إليه لكن كلماته لم يكن لها أي صدى في داخلي، مرة أخرى لا أريد شيئاً من هذه المحاكمة. عند دخولي للمحكمة كنت لا أفكر إلا في شيء واحد، وهو أن تنتهي هذه المحاكمة بأسرع ما يمكن مثل ما تم تقريره، وتوجهت إلى صالة الزوار المجاورة لقاعة المحاكمة، وجلست مع الزوار والصحفيين. منذ اللحظات الأولى كنت أفكر وأقول لنفسي ابني قريب مني، ولا أستطيع رؤيته، يا له من عذاب؛ كان بإمكاني متابعة المحاكمة عبر الشاشة في بيتي لو علمت أني لن أراه، ولا أستطيع الإشارة إليه. بدأ ضغطي يرتفع من جراء هذا الاستبداد الأمريكي، ومن جراء إحساسي بالظلم والعجز؛ العجز في مواجهة هذا القضاء المتغطرس، ومن تواطؤ هؤلاء المحامين الذين وضعوا حاجزاً بيني وبين ولدي، وانفجرت عندما شاهدت العديد من المقاعد داخل المحكمة شاغرة.

عند بدء الجلسة اتجهت نحو مساعدة المحامين التي تقوم بترجمة مناقشات الجلسة وقلت لها:

- بلغي هؤلاء المحامين إذا لم يؤمنوا لي مكاناً قريباً من ولدي سوف أخبر الصحافة وكل الميديا بإستراتيجيتهم وألاعيبهم التي طلبوا مني التنسيق معهم لتنفيذها.

بعد بضع دقائق وقبل استئناف الجلسة من جديد جاءتني بالموافقة. الساعة الواحدة بعد الزوال، جلست بالقاعة الرئيسة، ووجهت نظري إلى

قفص الاتهام حيث سيجلس زكريا غير الموجود حالياً، لم أره ولم أكلّمه منذ سنة تقريباً، أي منذ أن قرر حفر قبره بنفسه، بإقراره أنه مذنب، كان قلبي يخفق ويدق 100 كلم في الساعة، لأول مرة منذ قدومي شعرت أن ضغطي بدأ يرتفع. هل ما زال هناك أمل في هذه المحاكمة؟ وهل هناك أمل في أن أستطيع إقناع زكريا بكل حبي ووجودي بجانبه أن يكف عن هذه اللعبة القاتلة، التي لا يقبلها أي عقل أو منطق، أقنعه أن يدلي بالحقيقة فقط، كنت أراقب الباب الذي سيدخل منه وأحلم.

فجأة فتح الباب، فكانت الصدمة الكبرى. هذا ليس ولدي ليس زكريا، ذو العينين اللامعتين، والنظر الحاد الذي رأيته آخر مرة، هو زكريا آخر. بدين وشارد أسدل اللحية حتى بطنه كأنه يريد أن يمنح لأمريكا صورته الحقيقية التي يرغبون رؤيته فيها؛ صورة المتطرف. إنه يشبه صدام حسين عندما تم القبض عليه.

أخذت أنظر لمن حولي لأراقب الحاضرين وكيف ينظرون إلى ولدي؟ أنظر إلى قضاة المحاكمة، وإلى رجال الصحافة، يبدو أن كل العالم ينظر إليه بوصفه إرهابياً متعصباً، في هذه الحالة فهو يضع أحد رجليه في القبر، وكان واقفاً على بعد أمتار مني، أصابتني برودة قبل جلوسي، لقد شاهدني وألقى نظرة تجاهي، لقد كانت نظرته ليس هي النظرة التي كنت في انتظارها، إنها نظرة ثقيلة محملة بعبارات اللوم والأسى، وكأنه يقول لي أنت هنا مع هؤلاء المحامين إنك تفعلين عكس ما طلبت منك. بعد ذلك غير وجهة نظراته، ولم يلتفت تجاهي طوال الجلسة. تصرفه هذا مزق أحشائي. كيف يمكن أن أشرح له أن علاقتي بهؤلاء المحامين انتهت؟

أنا هنا لأني أمه، ولا أريد أن أتركه يصارع وحده هؤلاء القضاة الذين يريدون موته، عيناي لم تكفا عن ذرف الدموع وبصري لم يكف عن متابعة زكريا، لقد كان بخصره حزام عريض من جلد وبلاستيك. سألت السيد بودوان عن هذا الحزام، بمجرد توجيه نظري إليه فهمت من نظرته أنه لا يستغرب سؤالي. هذا حزام كهربائي، إذا حاول زكريا الإفلات من مراقبة حراسه يوجهون إليه بواسطة هذا الحزام شحنة كهربائية لتهدئته. انقطع نفسي لما سمعت، كنت أعلم أن هذا النوع من الحزام يستعمل مع الكلاب فقط، لم أكن أعرف أنه سوف يستخدم مع ولدي، كان هذا كثيراً، يجب أن أخرج. وأغادر قاعة التعذيب، حيث كل الحاضرين ينظرون إلي نظرة العدو لعدوه، حتى ولدي مثله مثل المحامين، أصبح يعدّني في صف الأعداء. عندما خرجت حاصرتني وسائل الإعلام يريدون معرفة سبب عدم اهتمام ابني بي، ولماذا لم ينظر إلي؟ كيف أشرح لهم؟ كنت أود أن أقول لهم إنه لا ينظر لنفسه، فكيف سينظر لي، لكني لم أستطع. شعرت كأن قدمي غير قادرتين على حملي، وفجأة وقعت في سلم المحكمة، من حسن حظي كنت مع السيد بودوان مندوب منظمة حقوق الإنسان، والسيد روبيركوكشنغ رئيس المنظمة المناهضة للإعدام بأمريكة اللذين قاما بمساندتي، فلولاهما لما استطعت التهرب من وسائل الإعلام التي تطاردني. رجعت إلى الفندق وشربت منوّماً لكي آخذ قسطاً من الراحة. في الصباح قررت بعد كل ما حصل لي بالأمس أن أرجع إلى المحكمة، ليس لي خيار آخر، لو رجعت إلى فرنسة قبل نهاية المحاكمة سوف تتساءل كل الميديا؟ لذا لا يجب أن أستسلم، ولا يجب أن أعرّض نفسي للنقد والتعليقات المسيئة التي يمكن أن تؤثر على وضع ابني.

لكني أتعرض لضغط شديد، فالمحكمة قامت بعرض فيلم بواسطة الفيديو تم تسجيله سنة 2002، فهو تسجيل للتحقيق مع أحد أعضاء القاعدة الذي أُلقي القبض عليه في ماليزية وهو الآن مسجون لدى أمريكة، اعترف هذا السجين أنه قابل سيداً اسمه جون سنة 1999، وطلب منه تزويده بمواد خاصة بتصنيع المتفجيرات. وصارحه أنه يحلم بتفجير طائرة فوق البيت الأبيض. في وقت تسجيل هذه الشريط كان بإمكان زكريا الدفاع عن نفسه دون محام، فالسجين هو الذي يقوم بدور رجل من رجال المباحث لاكتشاف الرجل الذي يتستر باسم جون قال زكريا في التسجيل:

كيف تتصور هذا الشخص الذي قدم نفسه باسم جون؟

قال الشاهد:

- هو مثلك بالضبط.

- أنت تقصدني أنا.

- نعم.

- هل أنت متأكد؟

- نعم أنت هو.

- إذاً جون هو موسوي.

- نعم.

الغريب أن مضمون الشريط ليس سبب صدمتي؛ لأني أعرف أن ابني ينتمي إلى تنظيم القاعدة، لكن رؤيته بهذا الشكل يزيد من مأساتي،

ويضاعف أحزاني. في الشريط ولدي لا يبدو ملتحياً، ولا يلبس الطاقية، وما زالت نظراته حادة مثل ما أعرفه. كان يتحدث بوضوح، ويؤدي دور المحقق باحتراف. هو ليس بزكريا الموجود اليوم في قفص الاتهام. الشارد ذي العينين الغائرتين الذي يجلس على بعد أمتار مني، وتصورت أخيراً كم تغير زكريا، وتصورت أيضاً الوضع القاسي وغير الإنساني الذي يعيش فيه، الذي دمر شخصيته تماماً.

لا يمكن أن أتحمل أكثر مما تحملت، وعند نهاية الحقبة الصباحية غادرت المحكمة ورجعت إلى الفندق والدموع تنهال من عينَيّ. في صباح الغد عند دخولي المحكمة لم ينظر لي زكريا إلا نظرة شاحبة، ثم تهرب من النظر إلي كأنه طفل، وإن حياته مهددة، حتى لا أزعجه وضعت طرحة فوق رأسي منذ أول جلسة، لكن ذلك لم يثنه عما يفكر، وكأنه يقول لي إني لست راضياً عن حضورك، إنه متأكد أني ما زلت أتعامل مع المحامين. هذه المحاكمة عذاب، لكني لم أكن أتصور أن الطعنات الكبيرة هي طعنات ابني.

مع ذلك لا يزال هناك بصيص من الأمل، بالرغم من أن ولدي لم يكف عن شتمهم كلهم وبقوة، علمت أن أحد المحامين استطاع كسب ود زكريا وثقته، منذ أشهر، بدأ زكريا يقضي ساعات طويلة صحبة السيد «ياماموطو» أحد محامي زركين، كيف قبل التعامل معه ورفض الآخرين؟ لست أدري. ربما لأن هذا المحامي من الأقليات، ويبدو أنهما يقضيان ساعات طويلة في المناقشة، حتى أن زكريا أصبح يبتسم تارة، ويمزح تارة أخرى. عن ماذا يتحدثان لا أعرف؟ لم يحصل لي الشرف للتحدث مباشرة

مع السيد «ياماموطو»، بما أن زكريا ارتاح له، وأجرى معه نقاشات طويلة، فهو يوحي بالتفاؤل، ويحيي الأمل، هذا يدل على أن زكريا لم يمت بداخله، وأن تصرفاته أثناء المحاكمة ما هي إلا مسخرة، لكن كل هذا لا يزيل من حزني على مشاهدته وهو يحفر قبره بنفسه.

الحمد لله أنا لست وحدي، هناك من يساعدني في هذه اللحظات، وهذا من أهم قيم الدنيا كلها.

(31)

رسائل سلام

فيليس هي إحدى الضحايا التي فقدت ولدها في البرجين التوءمين، وعند خروجي من المحكمة تفاجأت بوجودها بين الحاضرين، تعالي عندنا في البيت لترتاحي قليلاً، أحسن من وجودك في المحكمة الذي لا يسبب لك إلا الأرق والحزن، هذا ما طلبته مني هذه الأم الطيبة.

تعرفت عليها في المحكمة منذ أربع سنوات، وأصبحت من أعز صديقاتي، جمعنا القدر والأحداث، وليس هناك ما يربطنا من قبل، مثلها مثل «برايان» روربيروكوني، كل واحد منهم فقد ولده أو ابنته أو زوجاً عزيزاً في أحداث 11 سبتمبر، وكلهم قرروا أن لا ينجروا خلف الحقد، وعدم المطالبة بالثأر لذويهم، وعدم السماح للعنف بالتسلل إلى قلوبهم.

تعرفت عليهم في شهر نوفمبر 2002 في تلك المدة عبرت لهم عن تضامني معهم، ومشاركتهم حزنهم وألمهم. قبل مقابلتهم والتعرف عليهم لم أنم طوال الليل، لقد كنت خائفة من ردة فعلهم من نظراتهم وتقويمهم لي، لكن عندما واجهتهم عرفت أن ما يجمعنا هو الاحترام، وتقارب في التفكير والأحاسيس، فيليس التي فقدت ابنها «قريق» في البرجين التوءمين، قامت من مكانها واقتربت مني، وقبل أن تتلفظ بأي كلمة احتضنتني وأمسكت بي مدة طويلة، كانت لحظة أليمة وجميلة في

الوقت نفسه، فهي الأم التي فقدت ولدها دون ذنب، وأنا الأم التي على وشك أن تفقد ولدها دون ذنب أيضاً.

كلهم تأكدوا أني لست هنا لتقديم الأعذار، وتبرير موقف ولدي، ولا عدم تحميله المسؤولية. كلهم حملوني رسالة مفعمة بالصداقة والرحمة ومنحوني صداقتهم الخالصة.

منذ ذلك الحين بقينا مترابطين متماسكين، فيليس تعلمت الفرنسية حتى تتمكن من مكالمتي بانتظام، كل سنة وفي 11 سبتمبر بالذات نبقى متمسكين بالهاتف مدة طويلة، بالنسبة لنا هذا اليوم يجسد الألم والحزن، الذي يجمعنا أكثر مما يفرقنا، ولدها وولدي جمعهما القدر في هذه المأساة في التوقيت نفسه، وفي المكان نفسه. هذا ما كانت تردده فيليس باستمرار عندما قرر زكريا أن يقر بأنه مذنب، كانت أول من يتصل بي ويساندني.

منذ بداية المحاكمة وهؤلاء الأصدقاء يقفون بجانبي، ويطلبون السلام والعفو لولدي، موقفهم هذا هو أجمل رسالة في التسامح والمصالحة، لقد غمروا قلبي بالصداقة والدفء. لولاهم لهلكت وانتهيت، وما كان بإمكاني مواجهة هذا الامتحان الصعب بمفردي. كانت فيليس تقول لي أنت لست وحدك التي تريد معرفة الحقيقة، تقول لي ذلك وآلات التصوير مسلطة علينا، للأسف الميديا لا ترحم، إنهم لا يهتمون بهؤلاء الأصدقاء المتسامحين بل يسلطون الضوء كلها على هؤلاء المتشددين الذين يطالبون بالثأر بدلاً من المطالبة بالعدل والإنصاف.

بعد أربعة أيام من العذاب في قاعة المحاكمة ذهبت عند فيليس في نيويورك للخلود إلى الراحة، يا لها من مفارقة. جئت هنا من أجل ابني المتهم بإخفاء معلومات مهمة، كانت ستسهم في احتواء تفجيرات 11

سبتمبر، فكان أكثر الناس مساندة لي والوقوف معي هم من فقدوا ذويهم في هذه الأحداث الدامية. الذهاب إلى نيويورك أثار إحساساً خاصاً بداخلي. في سنة 2002 في أثناء زيارة سابقة قمت بزيارة مكان الأحداث، وزيارة البرجين التوءمين اللذين تم وأدهما في جراوند صفر. يا لها من صدمة! ما زلت أشعر بالقشعريرة التي أصابتني في هذا المكان البارد الهامد الذي يذكرك بالموت والدمار والتأسف، وكيف لا تشعر بالحزن والأسى أمام هذه المقبرة الجماعية الرهيبة، وكيف لا تشعر بالرحمة للبشرية جمعاء، وكيف لا تدعو ألّا تتكرر مثل هذه الأحداث لا هنا ولا في أي مكان آخر من العالم؟

قضيت أربعة أيام في نيويورك في هدوء تام بعيدة عن جو المحاكم، ومحاطة بالحنان والحب حنان دون مقابل؛ حنان الإنسانية. قبل هذه الأحداث لم أزر أمريكة، ولم أقابل شخصاً أمريكياً أبداً. كل ما أعرفه عنهم ما أشاهده في الشاشة الصغيرة، وعند أول زيارة لي في سنة 2001 كنت أتساءل كيف سيكون استقبالي؟ وجدت أشخاصاً طيبين متفهمين محترمين وكلهم دفء، في الشارع كثيرٌ من الناس حذروني من تجنب الشارع، لكني لم أتعرض لأي مضايقة تذكر، ولا نظرة حاقدة ولا كلمة مسيئة، هذا ما جعلني ألبي دعوة صديقتي فيليس التي أصبحت أختاً لي لأقضي بعض الأيام في ضيافتها، وكل ليلة أحل ضيفة على إحدى عائلات الضحايا، وكل العائلات قدمت لي حفاوة وكرم الضيافة، لا يمكن أن أنسى هذا الاستقبال أبداً.

ليلة مغادرتي لاحظت ابتسامة غريبة تنطلق من شفتي فيليس، كأنها تحضر لي مفاجأة كبيرة. «راهب كنيستهم سوف يقوم بإحياء سهرة تسامح تشريفاً لي»، قالت ذلك وكلها لطف، ثم أضافت أنه يأمل أن تقبلي هذه الدعوة الصادقة، يا لها من مفاجأة سارة! لقد انقطعت أنفاسي.

عند دخولي الكنيسة الصغيرة، كان هناك نحو ثلاثين شخصاً في استقبالي بقلوب مفتوحة، وأيد ممدودة، احتضنتني كل واحدة منهن احتضان الأخت لأختها.

اقتربت مني امرأة طويلة وجميلة اسمها كوني، مات ولدها في إحدى البرجين الأخوين بمركز التجارة العالمية، قالت لي: لقد احتفظت بكثيرٍ من المقالات التي تخصك. كنت أتمنى أن أقول لها، إن كلماتك بلسم على قلبي، لكن جهلي للإنجليزية كان حاجزاً بيني وبينها، فاكتفيت بأخذها في حضني عدة ثوان، وكل واحدة تواسي الأخرى مثل أختين جمعتهما محنة واحدة، بعد ذلك خاطبني زوجها قائلاً: لقد أخبرتنا فيليس أنك منهارة، ولكن يجب عليك الاهتمام بصحتك، ليس هناك وقت للفشل في نهاية المشوار، وكل مرة تمرين بظروف صعبة فكري فينا وكوني متأكدة أننا لن ننساك أبداً، فقدت قواي واسترجعتها أمام هذه الكلمات الطيبة، والنصائح النبيلة. تدخلت فيليس وأخذت بيدي، وقالت نحن مجبرون على التطلع للمستقبل، لكن ذلك صعب بالنسبة لك، لأنك في طريق مسدود، لهذا لا يمكنك الاستسلام، ويجب مواصلة المعركة.

استمرت مقابلاتنا هذه بكل صدق وإخلاص، وكل واحدة مؤثرة أكثر من التي سبقتها، وفي إحدى السهرات جاءت امرأة حامل وشرحت لي أن أباها توفي في أبراج المركز العالمي للتجارة ثم قالت لي:

- من اليوم فصاعداً سأزرع بذور الحياة بداخلي ولا أريد زرع العنف والحقد، وبعد ذلك احتضنتني طويلاً بين ذراعيها، وغمرتني بالحب والحنان.

هذه أول مرة أعيش أجواء مثل هذه. كم هي لحظات سعيدة تلك التي أقضيها بين هؤلاء المنكوبين المجتمعين هنا من أجلي؛ من أجل مساندتي ومواساة بعضنا بعضاً، كم أنا مرتاحة مع هؤلاء الناس؟ هم هنا من أجل حب الآخرين، ولا تهمهم ألوانهم ولا أديانهم، كل هذا لا يمنعني من التفكير في زكريا. كم تمنيت أن يكون حاضراً بين هؤلاء المخلوقات، ليعرف أن السم والحقد الذي بداخله لا يساوي شيئاً أمام تسامح وأخلاق هؤلاء وحبهم، إنهم في نيويورك وليسوا بعيدين عن السجن الذي يقيم فيه.

(32)

اللعبة كانت منتهية قبلاً

في مارس 2006، كنت قد رجعت إلى ناربون منذ خمسة أيام، وكنت أتابع المحاكمة عبر الشاشة، ومكالمات صديقتي فيليس المتواصلة، وفجأة رن الهاتف إنه صحفي صديق لي قال:

لقد توقفت المحاكمة، لأن القاضي فطن للعبة المحامين الذين أرادوا التلاعب ببعض الشهادات، والكل يقول: إن كل ما حصل لن يمكّن العدالة من المطالبة بالإعدام لزكريا.

سأل: هل هذا الخبر أسعدني؟ كيف أشرح له أن هذا لا يغير أي شيء، مهما حصل فزكريا سوف يموت في السجن بالشيخوخة أو أي شيء آخر، وأنا لا أريد أن أفرح أن ينجو ولدي من الموت لمجرد تلاعب قضائي أو ما شابه ذلك، ما أريده هو العدل بإنصاف وإظهار الحقيقة، والحكم على ولدي وفقاً لما ارتكبه، وما ارتكبه فقط لا لأفكاره. هذا يدل على أن العدالة الأمريكية يمكن أن تلجأ إلى كل الأكاذيب، وكل الألاعيب للوصول إلى غايتها، وهي أن تجعل ولدي مذنباً، إني أعرف أنها تستطيع ذلك، ستصل إلى ما خططت له.

في 3 يونيو 2006 كنت جالسة في البيت أشاهد التلفاز، وأستمع إلى المذياع في الوقت نفسه فعلمت أن القضاة قد اتخذوا أول قراراتهم، إنهم يعدّون زكريا مذنباً. لو لم يكذب عند إيقافه قبل شهر من أحداث 11 سبتمبر لتم تفادي التفجيرات.

كنت ثائرة وحزينة وقد تحظم قلبي، وكنت أقول لنفسي: لقد نال جزاءه. وهذا ما كان يريده وألومه على ذلك. قبل أسبوع كان مدة ثلاث ساعات يصر على أنه ينتمي إلى فرق الموت الانتحارية، وإنه حقق ما كان يتمناه القاضي، لقد ادعى أنه كان من المفروض أن يكون الطيار الخامس للطائرة التي كانت ستدمر البيت الأبيض. لقد ادعى أيضاً أن ريتشارد صاحب الحذاء المفخخ ينتمي إلى المجموعة ذاتها، لكن الأف - بي - آي تقول: إن ذلك مستحيل. قال ذلك وكيل الجمهورية، تريدون قتل الأمريكان؟ رد عليه زكريا نعم. إنه يغير تصريحاته متى شاء، ويعطي معلومات غير مترابطة متى ما شاء أيضاً، حتى أصبح كل هذا من مألوفاته؛ لأنه لا ينفك عن توجيه التهم لنفسه.

بعد هذا التصرف لا أستغرب أن المحققين الأمريكان أصبحوا لا يهتمون بشهادة أفراد القاعدة الذين تم إلقاء القبض عليهم. عندما تم استجوابهم قاموا كلهم بالاعتراف ببراءته. حتى الرجل الثاني في القاعدة الذي قام بإعداد تفجيرات 11 سبتمبر برأه، وهذا الرجل هو الشيخ خالد محمد الذي يحتفظ به الأمريكان في سجن سري، لقد اعترف أن زكريا كان سيشارك في تفجيرات أخرى في المستقبل، ولقد تم إبعاده لأنه يتكلم كثيراً، وغير موثوق به. أما سيف العدل أحد المسؤولين عن الشؤون العسكرية في القاعدة، فكان أوضح من غيره، لم يكن زكريا من ضمن فرق الموت التي قامت بتفجيرات 11 سبتمبر.

لماذا يكذب كل هؤلاء الرجال؟ ليس من صالحهم تبرئة زكريا مع أنهم متفرقون، فالكل على رأي واحد، زكريا لا علاقة له بأحداث 11 سبتمبر. الحكومة الأمريكية عملت كل ما في وسعها للتقليل من أهمية هذه

الشهادات، ولم يعطوها أي أهمية إلا بعد أن اعترف زكريا أنه مذنب. وفي سنة 2005 وأثناء المحاكمة لم تستدع أحداً منهم للإدلاء بشهادته، لقد اكتفى القضاة بما ورد في الشكاوي. هذا يدعو إلى النوم، هذا ما قالته لي فيليس صديقتي الأمريكية. إذاً القضاء لم يأخذ هذا في الحسبان، هم يفضلون أقوال المتهم الذي يدعي أي شيء ليموت سعيداً، هل نسوا أن زكريا قال للشرطي قبل محاكمته إنّه يفضل أن يموت وهو يحارب بدل أن يموت في المرحاض في السجن، وهذه رسالة واضحة، أنه لا يريد السجن المؤبد، ويعمل كل شيء من أجل الإعدام حتى وإن اضطر إلى إعادة كتابة التاريخ، ويكون هو نفسه القاضي والمحكوم عليه، الحكومة الأمريكية من جهتها تفعل أي شيء لإعدامه، فهي لا تضيع فرصة مثل هذه لتقديم الجاني إلى الرأي العام؛ الجاني المسؤول عن مآسيهم وكوابيسهم. لماذا لا يحاكمون الشيخ خالد محمد الذي خطط لأحداث 11 سبتمبر، بدلاً من محاكمة ولدي الذي وقع في لعبة تجاوزته؟ لم أستطع قبول قرار المحكمة ولا هضمه، أصبحت مقتنعة أن المسرحية التي يقوم بأدوارها القضاة تم كتابتها سابقاً، وعلى مقاسهم. إن ذلك واضح من قراراتهم. كانوا يعرفون أن الأف - بي - آي الذي حقق مع زكريا قبل 11 سبتمبر كان يعرف أن زكريا لا علاقة له بهذه الأحداث، ويعرفون أيضاً أن وكيل الجمهورية حاول التأثير على كل من قام بتبرئة زكريا؛ لأنه يعرف أن ولدي غيّر تصريحاته واتهم نفسه بأشياء كان ينكرها قبل شهرين، ولو حصلت هذه الأشياء في محاكمة أخرى سوف يعدّونها مهزلة وليست محكمة، لقد تم الحكم بالبراءة على أو - جي سمبسون على شيء أكثر من هذا.

هنا لم يعترض أحد والكل يعدّ أن كل هذه الشكوك طبيعية جداً، منذ 12 سبتمبر وكل وسائل الإعلام تعدّه مذنباً، لا أحد يعرف الحقيقة لكنه مذنب، فهو الرجل رقم (20) المكمل لفرقة الموت، فهو المسؤول عن انتقاء الإرهابيين، وهو الإرهابي من الجيل الثاني. كل الجرائد تتبع التعليمات التي تمليها عليها الحكومة الأمريكية، ثم يتقبلونها برحابة صدر، ولا يحاولون التمعن فيها أو معرفة الحقيقة والأدلة، فهو ينتمي إلى القاعدة لذا فهو مذنب. هذا ما تقوله الحكومة في الخفاء. ولكن هل كل من ينتمي إلى القاعدة هو مسؤول عن قتل ثلاث مئة بريء؟. ربما كل من ينتمي إلى القاعدة يستحق السجن بدلاً من الإعدام. من يقول إن الحكم المؤبد لا يساوي الإعدام، والموت أفضل من المؤبد. لدي إحساس وقناعة أن زكريا لا علاقة له بأحداث 11 سبتمبر، أنا أومن بذلك. عندما كتب لي في سنة 2001 وعندما قابلته سنة 2002 كان يتكلم معي بصدق. لم يخف علي أي شيء من مسيرته وانتمائه إلى القاعدة وحقده على الغرب، وحتى زياراته للشيشان وأفغانستان، وكم من مرة حلف لي إنه لا علاقة له بأحداث 11 سبتمبر. وأنا أعرف أنه لا يكذب، فيما بعد بدأ يوجه التهم لنفسه بعد أن تم عزله في السجن ثلاث سنوات. سجن الأمن القومي كما يسمونه، وفي كل مرة أراه في قفص الاتهام تصيبني الصدمة، فهو يشبه المخدّر. بالإضافة إلى تعصبه الشديد، فكل هذا يوحي أنه ليس في حالته الطبيعية.

وعندما اتّهمه القضاة بالتواطؤ مع الإرهابيين قضوا على آخر شعاع من الأمل لمعرفة الحقيقة. كنت سأواصل المعركة إلى النهاية بالرغم من هذه الاتهامات وبالرغم من اعترافات زكريا الكاذبة بأنه مذنب. كان هناك بصيصٌ من الأمل «يعشعش» داخل قلبي. لكن الآن كل شيء انتهى.

من جهة زكريا سيقضي حياته كلها في السجن بسبب التواطؤ مع الإرهابيين كما يدعي القضاة. ومن جهة أخرى فقد أصبح في نظر العالم كله مذنب في أحداث 11 سبتمبر الدامية.

لم يتبق لي سوى الانتظار. كيف سيموت زكريا في قاعة الإعدام أو داخل زنزانته بعد ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة؟ كل دموع الدنيا لا تكفي للحد من ألمي.

كان 6 أبريل بداية المرحلة الثانية من المحاكمة. هنا يجب معرفة إذا كانت هناك مبررات لصالح زكريا أم لا، كل هذا لا يهمني، إني أشعر كأني غير معنية بكل ما يجري. أنا أعرف أنّ وكيل الجمهورية سيفعل أي شيء لتسليم زكريا إلى قاعة الإعدام.

بدأت المحكمة بعرض فيلم اسمه رحلة رقم 93. هو فيلم وثائقي يكشف اللحظات الأخيرة التي عاشها ركاب تلك الرحلة قبل تفجيرها في بنسلفانيا في 11 سبتمبر 2001. تم عرض فيلم آخر عن انهيار البرجين التوءمين في الوقت نفسه، كان العديد من أهالي الضحايا موجودين في صالة العرض والكل يصرخ ألماً على الراحلين.

من يمكنه الصمود أمام كل هذا؟ بالنسبة لي ليس هناك مبرر لهذه الأعمال البربرية، وعندما أسمع كل التعليقات وأرى هذه الصور أشعر بتمزق في أحشائي والدموع لا تفارقني، من جهة أخرى غضبي لا حدود له؛ لأني أشعر أن المحكمة تريد التأثير على الرأي العام وعلى رجال القضاء بهذه الصور المؤلمة لتشديد الخناق على زكريا دون مراعاة الحقيقة ولا أهالي الضحايا الطيبين الذين لا يطالبون بأي ثأر.

لكن للأسف زكريا قدم لهم خدمة العمر، لقد سافرت إلى أمريكة ثلاث مرات لأستمع إلى أقوال زكريا، ولم أصدق ما سمعت، وهذا ما قاله: كنت أود أن يكون هناك 12، 13، 14 سبتمبر، وهكذا كان يردد ذلك، وهو يشاهد البرجين الأخوين يلفظان أنفاسهما الأخيرة، وعند مغادرة المحكمة أخذ يردد تقليداً لأغنية Burn In The USA مولود بأمريكة، Burn In The USA أي الحريق لأمريكة. يا له من تحد سافر:

إني أتألم من أجله لأن حقده وتعصبه لا يشرف، وسوف يجرّانه إلى القبر مباشرة. إني أتألم من أجل فيليس وكوني وكل صديقاتي اللاتي فقدن عزيزاً في هذه الأحداث، وكنت أتمنى أن أكون بجانبهن لأعبّر لهن عن أسفي على ما يصدر من ولدي من تصريحات حاقدة، فيليس شعرت بذلك، فكلمتني بالهاتف والغريب في الأمر أنها تتأسف من أجلي، هي تعرف كم أعاني من تصريحات ولدي الحاقدة وتريد مواساتي.

الصداقة والأخوة هما الوحيدان القادران على ضمان الأمن والأمان في العالم، وبعد ثلاثة من العروض المحرضة للثأر قامت القاضية بتحذير المتشددين من القضاة بمحاولة تغيير مجرى المحاكمة، انتبهوا من أي محاولة للتأثير على القضاة، وسوف تكون لها عواقب سلبية على المحاكمة، فهم وكيل الجمهورية أنه يجب الكف عن عرض هذه الأفلام من أجل الإطاحة بولدي، وسحب أجهزة الفيديو ولكن بعد فوات الأوان.

في 17 أبريل قدم صديقان لزكريا من فرنسة للإدلاء بشهادتهما بخصوص زكريا، هما جيل وفابريس أفضل أصدقاء زكريا وفابريس هو الذي كان يذهب لإحضار صديقة زكريا، عندما حصلت له مشكلات مع والدها، لقد قالا للقضاة: إن زكريا كان ولداً طيباً منفتحاً يحب المزح

والضحك، ولم يكن عنصرياً ولا متديناً. انفجر فابرس بالبكاء عندما رأى زكريا في الحالة التي هو فيها، تفيدني فيليس أنها رأت التأثير على زكريا، لأول مرة لم تبدُ عليه ابتسامته الحاقدة المعتادة.

عادة زكريا ينهي الجلسة بـ الله أكبر عاش ابن لادن، والموت لليهود وأمريكة، أما اليوم فقد غادر قاعة المحاكمة دون التلفظ بعباراته الشهيرة «الموت لليهود»، إن ذلك لم يكن نسياناً منه؛ بل لأنه دون شك تذكر أن صديقه جيل يهودي، وتجنب إيذاءه وجرحه.

لأول مرة منذ بداية المحاكمة ابتسم، هذا الخبر أرجع لي الحياة وأعاد لي الابتسامة، هذا يدل على أن الأحاسيس الطيبة ما زالت تنمو داخل كيان زكريا، وأن هناك شعلة من الأمل بداخله، لا تتطلب إلا المحافظة عليها لتنمو بداخل جسده كله.

في 20 أبريل طلبتني فيليس على الهاتف، تبدو سعيدة جداً، قالت لي: وأخيراً استمع إلينا القضاة، لقد أيقنوا أخيراً أن كل العائلات المنكوبة لا تطالب بالثأر لها.

- ما الذي حصل بالضبط.

لقد وقف الجميع أمام القضاة وطلبوا عدم الحكم بالإعدام على زكريا، وأضافوا أنهم لا يريدون مواجهة الإساءة بالإساءة والموت بالموت.

أخيراً لقد استطاعوا فرض أصواتهم على القضاة، والعالم أجمع شاهد أن هؤلاء المنكوبين طيبون، كما أنهم كرماء أيضاً، كل عائلة فقدت عزيزاً لها، وعلى الرغم من ذلك فكلهم تحدوا وكيل الجمهورية والميديا

ليؤكدوا أن ابني ليس المذنب الحقيقي، ولا يجب تأجيج الأحاسيس الحاقدة والمطالبة بالثأر، كم أنا مطالبة باحترام هؤلاء الناس النبلاء، وكم أنا ممنونة لهم: إني أكن لهم عرفاناً لا حدود له.

وبالرغم من ذلك فلم تغمرني فرحة صديقتي فيليس، لقد فات الأوان، آه لو سمع القضاة ووسائل الإعلام نداء السلام هذا، ربما كان الوضع قد تغير إلى أفضل من هذا، لكن هذا حصل في نهاية المحاكمة.

زيادة على ذلك هناك عداء متواصل وحرب ضارية بين زكريا وكبير المحامين جيرالدزركين. إنه لم يحظ بثقة زكريا أبداً، وكان زكريا يناديه دوماً بمصاص الدماء، فهو يلومه على عدم السماح للمحامي صديق خان بالاطلاع على ملف القضية، لهذا انسحب المحامي الإنجليزي من اللعبة والمحاكمة في آن واحد. زكريا متأكد أن زركين متواطئ في لعبة الحكومة، لذا كان يحاول أن يعاكسهم لتدمير عملهم، وعندما يقترب زركين من زكريا ينظر إليه زكريا باحتقار، ويقول له: أتمنى سقوط صاعقة عليك، كنت دوماً أتساءل إذا كان زكريا يتصرف بهذا الشكل بلا وعي ولا مسؤولية، فهذا من أجل تخريب عمل المحامين الذين يزعمون أنهم يدافعون عنه، ومنعهم من الدفاع عنه.

أمام تصرف مثل هذا ما فائدة نداءات السلام والتسامح؟ وما مدى تأثيرها؟ قالت لي فيليس: أنت غلطانة يا عائشة، لو كنت موجودة هنا لرأيت مدى تأثر القضاة بموقفنا.

غضبت كثيراً من اتهامات النيابة الموجهة لولدي، وطريقة الدفاع المتبعة من المحامين. كان لكلمات وكيل الجمهورية وقع الصاعقة على

قلبي، إذ قال: هذا الشاب لا يستحق البقاء هنا على وجه الأرض. قال ذلك مخاطباً القضاة، وبعد ذلك طالب بالإعدام وهذا لا شيء بالنسبة لما قاله زركين الذي يدعي أنه يدافع عن ولدي؛ لأن طريقة دفاعه كانت أقسى من اتهامات النيابة، فبدلاً من أن يقول: إن هذا المتهم لا يستحق الإعدام، شرح للقضاة أن الإعدام أخف ما يمكن تسليطه على زكريا، وأن المطلوب منهم تسليط المؤبد عليه، ليقضي حياة مميتة بقية حياته، هل من المعقول أن تصدر هذه الأقوال من محام مثل هذا يدعي أنه يدافع عن المتهم؟

كان زكريا يقول لي دوماً إن هؤلاء المحامين هم أعداؤه، وكان يكن كرهاً لا مثيل لزركين. أعتقد أن هذا المحامي أراد أن ينتقم من ولدي في آخر المطاف، صديقتي فيليس كان لها الرأي نفسه. أما أنا فكنت ألفٌ وأدور في المكان نفسه، قريباً ستنتهي المحاكمة. لذا من المفروض أن أكون قريبة منه ومن صديقاتي الأمريكيات. قررت السفر إلى واشنطن لحضور نهاية المحاكمة.

(33)

الحكم النهائي

للأسف لم تكن الأجواء كما تمنيت، وعند وصولي قام زكريا بإشعار القاضي أنه لا يريد حضوري أثناء إصدار القرار النهائي، ومرة أخرى إنّه خائف أن أبكي أثناء المحاكمة، ولا يريد أن يشمت الحاضرون بي.

فهو لا يعلم أني لا أنتظر أي شيء من هذه الجلسة النهائية، وسوف أكون هادئة لأنه بالنسبة لي تم الحكم عليه سابقاً، زكريا لا يفهم أني قدمت من أجله، من أجل مساندته لا غير. كان دوماً يطلب مني ألّا أهتم بقضيته، وألّا أتعامل مع المحامين، وألّا أكلم الصحافة لكن لم أنفذ أوامره. ولو كانت هناك فرصة واحدة لإنقاده، لتمسكت فيها لكن هذه المرة كل شيء مختلف، واللعبة انتهت. ولا يمكن تغيير أي شيء، اعتذرت بي الخفاء، ورجعت إلى فرنسة مكسورة القلب. أنا لا ألومه لأنه أمرني ألّا أحضر، وأعرف أنه طلب ذلك لكي لا أكون شاهدة على الحكم بالإعدام عليه.

توقفت بي باريس حيث أعارني أصدقاء شقتهم أثناء غيابهم.

إني لا أريد أن أرى أحداً، وخصوصاً رجال الإعلام، أريد أن أكون وحدي، وأنا أشاهد الحكم النهائي. منذ خمس سنوات وأنا أكافح من أجل تخفيف العقوبة بصفة أو بأخرى، واليوم أنا خائفة من ردة الفعل. كيف ستكون ردة فعلي لو تم الحكم عليه بالإعدام؟ هل سأستطيع الصمود؟ أو هل ستزل قدماي وأنهارُ مثل ما يقع القصر المصنوع من الورق؟ لست

أدري لهذا قررت أن أكون وحدي. عندما يصدر القرار، لا أريد أن يحضر أحد إذا انهارت أعصابي لو قدر الله.

في 4 مايو كان إعلان الحكم، سوف يتم عند الساعة التاسعة والنصف مساء، يداي ترتعشان أنظرُ إلى الساعة كل ثلاثين ثانية دون أن أشعر، وقلبي على وشك التوقف، أشعر أنه سوف ينفجر في أي لحظة، وإني على وشك الانهيار، الوقت أيضاً لا يسعفني، فهو يمر ببطء شديد يا له من عذاب!

لقد سبق وأن صرحت للصحافة أن الإعدام أهون من المؤبد؛ لأن المؤبد موت على نار هادئة؛ موت غادر. إنها المِيتَةُ التي قد يُجرد ولدي من كل ما تبقى له من إحساس إنساني قبل إنهائه، لكني كنت أحس بداخلي أنه سيحكم عليه بالمؤبد، وقبل دقائق من صدور القرار الأخير كنت أقول لنفسي ربما المؤبد، قد يسمح لولدي بطرد الشياطين التي تسكن بداخله. يا ترى ماذا يفعل زكريا في هذه اللحظة، وفي ماذا يفكر؟ هل لا يزال يتمنى الإعدام مثل ما كان يطالب في الجلسات السابقة؟ أو هل هذه إستراتيجية فقط وفي هذه الحالة هل هو خائف مثلي؟

أتمنى أن يكون خائفاً، كما أتمنى أن تكون يداه رطبتان مثلي، كما أتمنى أن يتسلل المغص داخل بطنه، ويشعر بالعرق الذي يغرقني. إنه لغريب أن تتمنى أم أن ينتاب ابنها الخوف، لكن بالنسبة لي إذا انتابه الخوف، فهذا دليل على أن أحاسيسه ما زالت على قيد الحياة.

- كيف وجدت نفسك في هذه المحكمة يا زكريا؟ كيف كنت ترى الآخرين وهم الذين سيقررون حياتك أو موتك؟

رجعت إلى ذاكرتي سنوات السعادة التي قضيتها مع أولادي، أنا أراه صغيراً وهو يتجه إلي لأعانقه وأداعبه، أتذكرُ وأسمعُ صراخه من شدة الفرح عندما أهديته كرة قدم جديدة، وإني أراه في صورة تذكارية للعائلة بين أخواته وأخيه، وإني أراه وهو جالس على شاطئ البحر، كم كانت حياتنا جميلة وسعيدة؟

بسبب هذا كله فضلت البقاء وحدي في انتظار الحكم، أريد الانفراد بولدي ربما لآخر مرة في الذكريات فقط.

الساعة التاسعة ليلاً رن الجوال، فأخرجني من الذكريات إلى الواقع، إنه صحافي دون شك، لن أرد على المكالمة. في الشقة لا توجد لا قنوات خاصة، ولا قنوات دولية لذا أخذت أستمع إلى المذياع حتى لا تفوتني الأخبار، وأستمع إلى الحكم النهائي مباشرة.

الساعة التاسعة والثلث حان الوقت، وبدأ ضغطي يرتفع، وكلّمت الأصدقاء جميعاً عبر الهاتف الجوال للتأكد من الحقيقة، هل هو الواقع أم أنا أحلم؟

الساعة التاسعة وثمان وعشرون دقيقة، أصبحت غير قادرة على الحركة مشلولة من الخوف، ورفعت صوت المذياع، أريد أن لا يتسرب أي صوت من الخارج، ويعكر صوت المذياع.

الساعة التاسعة والنصف، الصحفي يعلن بدأ المحاكمة مباشرة، والسجن مدى الحياة لزكريا موسوي، من المفروض أن أرتاح من العذاب، لكن ذلك لم يحصل، لا شيء يمنعني أن أقول، إن هذا الحكم غير عادل، المؤبد إجحاف في حق زكريا نظراً لما ارتكبه.

فيما بعد عرفت، أن زكريا ودع القاعة كما عودهم بـ لقد ربحت وأنتم خسرتم، سوف أخرج من هنا قبل انتهاء مدة حكم جورج بوش، نحن جند الله وأنتم جنود الشيطان، ماذا ربح؟ إنه سيموت ببطء بسبب شيء لم يرتكبه، والهاتف الجوال لا يتوقف عن الصراخ وكل الصحافة تريد معرفة رأيي بخصوص المؤبد، وهل أنا مرتاحة لهذا الحكم، ليس لي القوة للرد على كل مكالماتهم، وكل ما كنت أتمناه هو الإنصاف، واكتشاف الحقيقة. كيف أكون مرتاحة لحكم تم تحريفه من البداية. كيف أفرح بالمؤبد الذي لا يستحقه ولدي؟ بينما العديد من عناصر القاعدة الذين تم الزج بهم في غوانتامو حكم عليهم بسنوات من السجن فقط.

كيف لا أغضب ولا أثور أمام ظلم سافر كهذا؟

بدأت أهدأ بعد هذا العذاب الطويل، عذاب محاكمة زكريا لكن زكريا سرعان ما فتح الجراح التي بدأت تلتئم، لقد أخبرني محامي حقوق الإنسان السيد بودوان أن زكريا اعترف أن كل ما قاله من تأليفه، وأنه لا علاقة له بأحداث 11 سبتمبر.

قال أيضاً:

- إني اعترفت أني مذنب، لأني كنت أعرف أن الحكم صدر سابقاً.

ثم قال المحامي:

- صحيح كما قال: لأن القضاة كانوا مصرين على الحكم عليه بقسوة.

قلت:

– نعم، ذلك صحيح، لكنه كان يظن أنهم سيحكمون عليه بالإعدام، والآن بعد أن أفلت من الإعدام، فهو يعتقد أن محاكمة جديدة سوف تثبت، عدم ضلوعه في أحداث 11 سبتمبر. لكن طلبه محاكمة جديدة سوف يتم رفضه تلقائياً.

لماذا لم يقل هذا من قبل؟ لماذا لم يستمع إلي عندما طالبته بالدفاع عن نفسه؟ وعدم الدخول في لعبة القضاة؟ لقد جفت دموعي ونفذت من المنبع. إني غاضبة عليه وغير راضية عن تعصبه الأعمى الذي قاده إلى وضع حد لحياته.

بكل غباء كنت أفكر أن معركتي مع من جر ابني إلى كل هذا انتهت. هؤلاء الذين لا يفكرون إلا في مصالحهم الشخصية فقط. لكني غلطانة، بعد أيام من صدور الحكم قرأت في إحدى الجرائد اليومية «عائشة الوافي تصرّح» إني أتهم المغرب بالتخلي عن ولدي. لم أتلفظ بهذا أبداً. كيف أتهم المغرب وولدي يتمتع بالجنسية الفرنسية؟ ولا يتمتع بازدواجية الجنسية.. إذا كنت سألوم بلداً ما سوف ألوم فرنسة التي لم تحاول مساعدتنا. لماذا كتبت هذه الجريدة كلاماً مثل هذا؟ من أجل ماذا؟ لا أعرف! الشيء الوحيد الذي أعرفه، أن هناك العديد من أمثال هؤلاء الذين يريدون استغلال الفرصة لتحقيق بعض المكاسب، والوحيد الذي يدفع الثمن هو زكريا وأمه.

بعد 15 يوماً أي في 23 مايو خرج «ابن لادن» عن صمته ليتسلل إلى الميديا، في تسجيل تم الإعلان عنه بالراديو يؤكد أن زكريا لا علاقة له بأحداث 11 سبتمبر، لجأت فوراً إلى الإنترنت لمعرفة ما قال: «أنا

المسؤول شخصياً عن توزيع أدوار الإخوان (19) الذين كلفتهم بتنفيذ هذه المهمة الغازية، ولم أكلف الأخ زكريا بأي دور في هذه المهمة». «لا شك أن هذا التصريح جاء بعد ضغط كبير عليه أثناء أربع سنوات ونصف» ابن لادن أعلن أيضاً أنه تلقى خبر إلقاء القبض على زكريا سنة 2001، وأنه لو عرف أن زكريا مطلع على أي معلومات تخص فرق الموت لطلب من أمير الجماعة محمد عطا والإخوان مغادرة أمريكة فوراً قبل أن يتم معرفة مخططاتهم.

إذاً ابن لادن يبرأ تماماً ولدي، أتمنى أن لا ينتظر أي شكر مني.

لماذا لم يتكلم من قبل؟ لماذا لم يحاول إنقاذ أخيه زكريا كما يسميه بدل من أن يتخلى عنه ويتركه قابعاً في زنزانته؟ مرة أخرى أكرر الاتهام وأقول له: إنه استغل ولدي من أجل مكاسب سياسية فقط.

- فات الأوان الآن، سوف يموت زكريا داخل السجن، بعيداً عن أهله وذويه.

ماذا يفعل الآن؟ وفي ماذا يفكر في هذه اللحظة؟ أطرحُ هذه الأسئلة على نفسي عشر المرات في اليوم. أنا خائفة عليه، على صحته جسدياً ونفسياً.

لقد تم نقله إلى سجن آخر، جحيم آخر. إنه «ممر خاص بواضعي القنابل» كما يسمونه.. إنه أصبح قريباً من رتشارراید ورمزي يوسف المخ المدبر لعملية التفجير الأول لمركز التجارة العالمية. لكنه قد لا يقابلهم أبداً؛ لأنه معزول تماماً عنهما مثل ما هما معزولان عنه. لا يقابل أي سجين آخر، وسيبقى 23 ساعة في اليوم حبيس غرفة عرضها متران وطولها ثلاث. احتكاكه الوحيد مع العالم الخارجي هو مع الحارس الذي يقدم له الأكل

من تحت الباب، ليس له الحق في تلقي الكتب أو الجرائد كما أنه لا حق له في الزيارات. كل ما يملكه هي شاشة تبث باستمرار برامج تربوية ودينية.

سوف يجرّونه إلى الجنون بلا شك. لقد شاهدت كيف تغير شكله بعد خمس سنوات قضاها خلف القضبان. كيف سيصمد الآن بعيداً عمّن يحبونه ويحب، بعد أن تخلى عنه من استغله، وحاصره الندم على ما فعل بنفسه؟

إني لا أفهم المنطق من هذه المعاملة القاسية غير الإنسانية. كيف يحرمونه من الاحتكاك بأي مخلوق آخر؟ كيف يحرمونه من التفكير في العالم وفي واقع تصرفاته قبل إعلان نهايته؟ كيف يتم تعذيبه وقتله ببطء؟ ما الغرض من الحكم عليه ليفقد صوابه وعقله؟

لقد تذكرت تصريح أحد حراس السجون الأمريكية الذي قال في أثناء قدومه بصفته شاهداً في قضية زكريا: «الظروف التي يعيش فيها زكريا مدى الحياة هي ظروف قاسية سوف تنال من صحته «..» لقد عشت أربعين سنة مع المساجين وأؤكد أنه بمرور الوقت يتعفن السجين ويهلك».

بعد ستة أشهر من صدور الحكم لا أعرف شيئاً عن زكريا. لا أعرف ماذا يفعل، كما لا أعرف عن صحته أي شيء؟ هل تأكد اليوم أنه تلاعب بحياته واستغله الآخرون بمن فيهم من كان يكافح من أجله، أم لا يزال تحت قبضة تعصبه وعنفه؟ إني أجد نفسي وحيدة. لا المحامية الجديدة المعينة من قبل الحكومة الأمريكية ولا الحكومة الفرنسية قادران على إفادتي عن ولدي، بعد أن تم دفنه حيّاً في السجن بسبب تفجيرات لم يشارك فيها، هذا الصمت لا ينفك عن تغذية كوابيسي. هناك شيء واحد لا يفارقني، وهو أنه لا يجب أن أتخلى عن ولدي وأتركه يتعفن في السجن.

الخاتمة

لقد أمضيت خمس سنوات وأنا أكافح من أجل إنقاذ زكريا، أكافح ضد رغبة بعضهم في المطالبة بالثأر، وضد الآخرين، وضد تعصب ولدي وتعنته. لم أفلح في إنجاز هذه المهمة الصعبة.

لكن المعركة لم تنته، فاليوم الكل يعرف أن ولدي بريء من أحداث 11 سبتمبر، ولا يمكن لأحد التجرؤ على القول إنه يجهل ذلك. في 13 يونيو 2006 تكرمت القاعدة بالإعلان عن الرجل (20) الذي كان من المفروض أن يشارك فرق الموت بمهمته. إنه يدعى تركي بن فهد المطيري، وفواز النشمي أحد السعوديين اللذين قتلا سنة 2004.

لذا سوف تتطلب ا الجديدة كثيراً من الوقت، لكني سوف أكافح دون توقف من أجل ولدي.

خلال خمس سنوات عشت العديد من التقلبات، شك، وفرح، وغضب وإحباط. لم أكن مهيئة لتحمل كل هذا لكن لو راجعت مسيرة حياتي للاحظت أن المعركة نفسها تتكرر. معركتي ضد العدو الأكبر وهو الظلم؛ الظلم الذي عانى منه ولدي حتى أصبح كبش فداء لتعصبه في قضية أكبر منه، وظلم ولدي للآخرين بسبب التعصب وعدم التسامح.

لقد خضت معارك للهروب من الضغوط. واجهت وحدي العديد من الصعوبات لتأمين حياة سعيدة لأطفالي، والوصول بهم إلى بر الأمان، وعلمتهم لكي يتمكنوا من الحصول على شهادة تفتح لهم أبواب العمل

وجني ما يكفيهم من المال. كنت أظن أني إذا حميت أطفالي من التقاليد البالية والعادات الرجعية سوف أحميهم من التعصب وقلة التسامح، وأردت لهم أن يعيشوا أحراراً، لكني فشلت. «القيم المزيفة» التي حاربتها طوال حياتي انتقمت مني وجردتني من ولدي ورمت بي في دوامة الألم.

لكن يجب أن أتابع المعركة، ولا يجب أن أستسلم اليوم، وأترك التعصب والحقد يكسبان المعركة.

لم أحاول أبداً التقليل من دور زكريا في إنكار انتمائه إلى تنظيم القاعدة وحلمه بالجهاد. أفكاره لم تكن ولن تكون أفكاري أبداً. أما ديني فهو رسالة مفتوحة على السلم والأخوة. كلماتي عاجزة عن التعبير عن أفكار ولدي. وعلى الرغم من ذلك فليس من حقي أن أتخلى عنه.

بداخلي مثل أي أم هناك شعلة لا محدودة محملة بالشعور الإنساني. معركتي المقبلة هي من أجل إخراج ولدي من الظلمات إلى النور؛ إخراجه من الظلام الذي رمى نفسه فيه وإعادته إلى ذويه.

في يوم 13 سبتمبر 2001، كانت صورة ولدي زكريا موسوي تتنقل وتتناقلها وسائل «الميديا» في العالم كله.

لم أكن جاهزة لخوض معركة مثل هذه، لكن الحياة علمتني الكفاح.

أم زكريا هي ضحية عادات وتقاليد لا معقولة، تم زواجها إكراهاً في سن الرابعة عشرة، عانت كثيراً من الضرب والإهانة، وهربت من عالم اضطهاد المرأة لكي تتمكن من تربية أولادها في أحضان الحرية.

لكن نهايتها كانت مأساوية، وكان انتقام عدم التسامح والجهل شديد جداً، والضحية هو ابنها زكريا الذي أُلقيَ به في دوامة العنف.

هذه قصة كفاحي، كفاح أم.

تم إعداد هذا الكتاب بمشاركة الصحفي ماتياس فافرون وصوفي كارانتا وهما مراسلان في التلفاز الفرنسي.